

مينيكه شيبر

ومن بعدنا الطوفان

حكايات نهاية البشرية

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

ومن بعدنا الطوفان

حكايات نهاية البشرية

المحتويات

ومن بعدنا الطوفان

رؤى ميثولوجية للنهاية

لو كان للبشرية بداية، فهل ستصير إلى نهاية كذلك؟ لقد أدى هذا السؤال المُعذِّب إلى عدد من النبوءات عبر مجرى التاريخ. لم تأتِ النهاية بعد، لكن خوفنا منها يبدو وكأنه لا خلاص منه. ولقد أوحى هذا الخوف للناس في كل أنحاء العالم بأن يبتدعوا قصصا أسطورية عن الهشاشة البالغة للحياة على وجه الأرض منذ البدء.

آمن أتباع حركة 2012 (ولهم أفلام كثيرة على اليوتيوب) أن الفيضانات والزلازل والأعاصير والانفجارات البركانية كانت ستدمر الأرض يوم 21 ديسمبر 2012. وبحثا عن النجاة من الكارثة العالمية القادمة، فإن حوالي 5000 من أثرياء العالم الغربي كانوا يخططون لبناء قبو في أعالي الجبال في مكان ما بأفريقيا. ونُصح جميع الناس الآخرين بإنهاء حيواتهم قبل ذلك التاريخ عن طريق ابتلاع الحبوب أو إغراق أنفسهم؛ لأن الأمر «سيكون رهيبا». تُرى أين سمعنا بهذا من قبل؟

«يجب ألا نحزن. ستسقط مريضا. نحن ومن بعدنا الطوفان..» هذا هو ما قالته مدام دي بومبادور بطريقة مرحة

للويس الخامس عشر عام 1757، عندما شعر الملك بقلق فظيع نحو المستقبل بعد إحدى الهزائم التي مُنيت بها جيوشه خلال حرب السنوات السبع (1756-1763). لا تخبرنا القصة إذا ما كان الملك قد شعر بالتحسن بعد كلمات مدام دي بومبادور.[1] حتى الآن لم يأتِ الطوفان الذي أشارت إليه، لكن كلماتها مازالت ذائعة كقول سائر. وهي تردد صدى روايات أسطورية قديمة عن اعتقاد الناس في نهاية مهلكة للبشرية.

1- ماتت مدام دي بومبادور بعد سبع سنوات ومات الملك عام 1774. بينما انتهى الأمر بخليفته لويس السادس عشر على المقصلة في الثورة الفرنسية.

الكوارث الكونية

لقد حدثت كوارث كونية عديدة في التاريخ الطويل للكوكب الذي نعيش عليه، ونحن نعرف أن مثل هذه الحوادث المرعبة يمكنها أن تحدث مرة أخرى. لا تحدث مثل هذه الكوارث إلا على نحو متفرق وعلى فترات كبيرة، لكنها في أسوأ الحالات قد تمحو الوجود الإنساني بشكل تام. وفي القصص التي تدور عن محنة العالم تفعل ذلك (أو تكاد).

ربما يميل الناس إلى التعامل مع القصص حرفيًا. وقد بدأ بضعة جيولوجيين في دراسة الطوفان في تراث الناس الخاص بحكي القصص على أساس من الرؤى العلمية الجديدة. وحاولوا أن يكتشفوا إذا ما كانت قصص الدمار تلك قد تعود إلى نفس الطوفان الكارثي الهائل، حادثة تراجيدية بسبب صدمة أرضية قاتلة داخل ذاكرة البشرية الحية. وقد وجدوا أوجه شبه قوية بين ملاحظات جيولوجية واقعية للكوارث العالمية وبين النكبات المشار إليها في القصص التراثية عبر العالم. هل يمكن القول أن هذه القصص كانت تشير إلى حادثة كارثية واحدة كبيرة، حادثة ضربت سكان الأرض في أجزاء مختلفة من العالم، وفي الوقت نفسه تقريبا؟[2]

إن الوعي بأجسام كونية تضرب الأرض قد غيَّر رؤانا لتطور

2- Vitaliano 1973; Tollmann

الحياة على كوكبنا. لقد تم العثور على أكثر من مائة وخمسين حفرة من أثر النيازك على الأرض، كما تم اكتشاف مثل هذه الحفر على كواكب أخرى. وتدريجيا بدأ العلماء يفهمون التأثير الهائل للضربات أو الصدمات النيزكية على الأحياء الأرضية من نبات وحيوان.

منذ أكثر من 66 مليون عام ضرب الأرض كويكب عرضه أكثر من 10 كيلومترات، لكن في عام 1980 فقط حدث وأن فريقا من الباحثين وصفوا بدقة كيف أن أجساما كونية مثل الشهب والنيازك، أو حتى الكويكبات الأكبر، تعبر مدار الأرض، وتضربها بالصدفة. عندئذ بدأ علماء الأرض والفلك يقتفون بحماس أثر الحقائق الخاصة بانقراض الزواحف العملاقة في العصر الطباشيري، الذي جرى قبل وقت طويل من وجود البشرية.[3]

منذ حوالي 9500 عام أتى مُذنَّب ضخم طائرا واصطدم بالأرض، متسببا في حدوث زلازل وأمواج تسونامي وانفجارات بركانية وأعاصير من الهواء الساخن والغاز السام والنشاط الإشعاعي والأمطار الحمضية والحرائق العالمية والشموس المعتمة والنجوم الساقطة والفيضانات والشتاءات المتجمدة والعواصف الثلجية في أماكن عديدة؛ ونتجت عنه وفيات جماعية

3- برناسة الفائز بجائزة نوبل: لويس ألفاريز وابنه. انظر أيضا: Tollmann 1995: 25-26.

للناس. جرى التعبير عن هذه الحوادث في قوالب من المجاز وأصبحت جزءا من التقاليد الشفاهية المحلية.

من وجهة نظر جيولوجية، انقسمت رأس هذا المُذنَّب إلى سبعة أو تسعة أجزاء قبل أن تضرب الأرض. ولا بد أن أجزاءه العديدة تلك قد بدت مثل جبال هائلة محترقة، وُصفت في بعض القصص على أنها شموس مميتة. في ارتباطه بذيله الطويل، أصبح ذلك النيزك في شرقي وجنوب شرق آسيا تنينا سماويا أو ثعبانا ذا رؤوس عديدة، يتلوى أو ينزلق في السماء. مثلا تتحول رأس المُذنَّب النارية إلى صورة التنين الصيني الذي مازال شائعا جدا بلؤلؤته أو كرته النارية التي تسقط في البحر وتتسبب في ارتفاع مفاجئ للماء. هل يرجع ذلك التنين إلى أثر ذاك المُذنَّب في بحر الصين الجنوبي؟ في أسطورة من جزيرة فيجي بالمحيط الهادي، هناك إله مُهَان، على شكل ثعبان هائل منتقم.[4] ولدى السكان الأصليين في أستراليا كذلك رمز ثعباني في تراثهم، كما تتم الإشارة أيضا إلى الرؤوس السبع في تقاليد حكي القصص البابلية. هناك حرائق تدمر العالم في النصوص الفيدية الهندية القديمة، وهناك دمار تسببه المياه والنيران في القصص الأمريكية الهندية. وتذكر **ملحمة جلجامش** أيضا كلا من النار والطوفان المدمرين:

أضاء الأنوناكي (آلهة العالم السفلي) بمشاعلهم الأرض

4- Riem 1925: 70.

بومضات حارقة. وغطى سكون إله العواصف السماء، وانقلب كل النور إلى ظلام. واشتعل غضب العاصفة الثائرة كثور، محطمة في طريقها الأشياء إلى قطع صغيرة، حتى غطى الطوفان على الناس، مدمرا كمعركة.[5]

وبعد ذلك بزمن طويل، أشار القرآن إلى الطوفان كفرن يغلي وينتظر أمر الله: {حَتَّى إذا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ...} (سورة هود، الآية 40).

هل تعود هذه القصص القديمة إلى شهادات الناجين من صدمة كونية؟ هل احتفظ الناس فعلا بمثل هذا الحدث المهول حيًا في ذاكرتهم؟ بالطبع لا يمكن إثبات أي شيء من هذا القبيل. نحن فقط نعرف أن أناسا كثيرين يعيشون في أجزاء مختلفة من العالم لديهم قصص تصف حوادث دراماتيكية مشابهة. تأتينا أقدم الروايات المكتوبة من الشرق الأدنى ويبدو أن تاريخها يرجع إلى 2000 قبل الميلاد، ويمكننا افتراض أنها كانت منتشرة في التقاليد الشفاهية لفترة أطول بكثير.[6]

يوجد مزيج من الزلازل والحرائق العالمية والطوفان العالمي والظلام والجليد العالمي – وهي الآثار المطابقة كثيرا لصدمات النيازك – في عدد ليس بقليل من القصص. من المستحيل

5- The Epic of Gilgamesh adapted from Andrew George trans. 1999: 91-92, and Stephanie Dalley ed. 2000: 112.

6- Sollberger1921, Handcook 1962

بالطبع المساواة بين البحث عن الحقائق وحكي القصص، لكن الجيولوجيين الذين مزجوا بين الحقائق الجيولوجية المحلية؛ مثل وجود الحفر والصخور الزجاجية tektites، وبين التقاليد المختلفة لحكي القصص؛ وجدوا أن أوجه التشابه أكثر إدهاشا لهم من أن يتجاهلوها.[7] علاوة على ذلك فقد حفظ أنبياء ومتنبئون مهمون الطوفان وغيره من أنواع الدراما الجمعية حية في رواياتهم عن نهاية العالم القادمة، من أول الأنبياء العبرانيين حتى نوستراداموس ومن أتى بعده.

إحدى النبوءات القوية للغاية التي تعلن النهاية موجودة في الكتاب المقدس. في سفر نهاية العالم أو سفر رؤيا يوحنا، وهو آخر أسفار الكتاب المقدس، تجري الإشارة إلى نجوم ساقطة وزلازل ومياه ونيران في إصحاحات عديدة، مثل (فتح الأختام السبعة)، (مشهد البوق)، و(رؤيا الجامات السبعة). مال الجيولوجيون المندهشون من هذه التوصيفات إلى ربط هذه التفاصيل المختلفة بتأثير صدمة كويكب. في نهاية العالم تتلاشى السماء «كدَرْج ملتف»، وتتزحزح الجبال والجزر من موضعها وتتغير الأرض بما عليها تماما. الغبار والحصى يُسوِّدان الشمس ويُلوِّنان القمر. الناس مرعوبون جدا حتى أنهم يختبئون في المغارات والكهوف، في هذه القصة وفي قصص أخرى كثيرة أيضا.

7- Cf. Alexander and Edith Tollmann 1995.

في إصحاحات أخرى من سفر الرؤيا هناك برد ونار مخلوطان بدم وألقيا على الأرض فاحترق ثلث الأرض وثلث الأشجار وكل عشب أخضر. يصير ثلث البحر دمًا وتموت ثلث الخلائق التي في البحر. ويسقط كوكب عظيم من السماء، متقد كمصباح، قبل أن يضرب ثلث الأنهار وينابيع المياه. اسم الكوكب الأفسنتين (المرارة) وله تأثير مُلوِّث؛ إذ يجعل ثلث المياه مُرًّا ويموت لهذا كثير من الناس. وتفقد الشمس والقمر جزءا من قدرتهما على الإضاءة. في الإصحاح التاسع يسقط كوكب من السماء على الأرض، ويعطي مفتاح بئر الهاوية. وبمجرد انفتاح بئر الهاوية، يبدأ الدخان في الصعود كأنه دخان أتون عظيم، فيظلم الجو.

ليس هذا إلا عدد قليل من الحوادث الفظيعة الموصوفة في هذا السفر.[8] ويبدو أن تلك الجوانب العديدة الموصوفة يمكن تفسيرها جيولوجيا على أنها أثر صدمة كويكب. يدخل القديس يوحنا في وصف نفس الحادث ثلاث مرات، مصورا ثلاث صدمات جزئية تأتي إحداها في أثر الأخرى. لماذا ثلاثة؟ كما نعرف الآن، فإن الصدمة العنيفة التي حدثت منذ حوالي 9500 عام تكونت من سبع صدمات منفصلة على الأرض تبعتها فيضانات. وفقا للنتائج الجيولوجية، فإن الشهادات الشرق أوسطية في قصص الطوفان كان يمكنها منطقيا فقط أن تتحدث عن ثلاث صدمات،

8- انظر الإصحاحات 6، 8، 9، وقراءات الجيولوجيين لتلك المقاطع في: Alexander and Edith Tollmann 1995.

لأن الصدمات الأخرى حدثت على مسافة بعيدة لدرجة أنه لم يكن من الممكن رؤيتها من هناك. من وجهة نظر جيولوجية يقدم سفر نهاية العالم صورة دقيقة بشكل ملحوظ للظاهرة التي يبدو أنه يشير إليها.[9]

السؤال إذن هو: هل هذه الحوادث جزء من تقاليد شفاهية ظلت تشير إلى حدث درامي جرى واستقر في الذاكرة الحية، رغم أنه كان في ماضٍ سحيق؟ وهل جرى بعد ذلك، كما هو الحال في سفر الرؤيا، أن نَقله رواة لاحقون في شكل رؤية تتنبأ بالمستقبل؟ أم أن هذه التراجيديات المهلكة قد اختلقها الحكاؤون؟

9- انظر كتاب Alexander and Edith Tollmann الذي تم ببحث حريص مقارنا أساطير الطوفان والحقائق الجيولوجية.

الأساطير كسرديات

كل الأساطير قصص، لكن ليست كل القصص أساطير. تتعامل الأساطير مع أسئلة لها أهمية جمعية، أسئلة تؤثر على المجتمع ككل، أسئلة عن كيف في ماضٍ بعيد صار العالم والإنسانية إلى الشكل الذي نعرفهما عليه.[10] وتُبقي الأساطير النهاية المهددة لحياة البشرية بعيدة بعض الشيء عن طريق حكي القصص عن كيف بدأت الحياة من جديد بعد أن تم تدمير العالم. وبذلك تثير مسائل وجودية وتضعها موضع المناقشة؛ مسألتا الحياة والموت، مسألتا البداية والنهاية.

هناك ثقافات لم تكن أبدا على اتصال ببعضها البعض لكنها تحكي قصصا تعبر بشكل مدهش عن مخاوف وهواجس إنسانية متشابهة. تحكي الأساطير كيف جاء أول الناس إلى الوجود على هذه الأرض. تشرح لماذا جاء الموت إلى العالم ومنذ ذلك الحين وهو يحصدنا جميعا واحدا بعد واحد. وتقدم الهلاك التام للبشرية في نهاية مشهودة واحدة مشتركة؛ مثل نار عالمية توقد أرضنا لهيبا كما في قصة من الهند، أو سماء تسقط بشكل تراجيدي كما في قصة من شعب هيريرو الأفريقي أو أسطورة من شعب الهان

10- لأسباب عملية أعرّف الأساطير كقصص عن الموضوعات الجوهرية للحياة والموت، والكون والأرض والبشرية. انظر كتاب ميرنشا إلياده (الأسطورة والواقع)، 1963: 6-5. في الأصل ترتبط الكلمة اليونانية muthos بكلمة mouth (الفم) والكلام وحكي القصص. ولها معان كثيرة مثل 1) الكلمة المنطوقة. 2) الرسالة. 3) الإشاعة أو القصة. 4) المقترَح. 5) الطلب، الأمر، التهديد. 6) الفكرة، الخطة، التصميم (كمضاد للقيام الفعلي بالعمل).

في الصين. في قصة من قصص المايا، بعد الخلق بقليل؛ سقطت السماء على الأرض وفي أعقابها نزلت المياه.[11] على مستوى العالم يحقق الطوفان أعلى النتائج متقدما عما قبله بكثير كأكثر سيناريو محتمل لفناء البشرية.

في القسم الأول من هذا الكتاب تُذكرنا القصص كيف انمحت البشرية تماما منذ زمن بعيد وبعد ذلك بدأت الحياة من جديد. وفي القسم الثاني تعلن القصص أن هذه الدراما ستحدث. وبعضها تمزج بين الاثنتين، واصفة الأولى بمفردات دراماتيكية ومحذرة من دراما جديدة ستحدث إذا كانت البشرية لن تسلك على أي نحو أفضل. وبين القسمين هناك فاصل من قصة واحدة استثنائية تفسر كيف نجحت الآلهة في الحيلولة دون ظلام كوني كارثي لم تكن الآلهة ولا البشرية كلتاهما ستنجوان منه.

تستكشف القصص الدائرة عن نهاية البشرية السؤال الخاص بإلى أي حد نحن قادرون على التعامل مع الموت، على مستوى جزئي وكذلك على مستوى كلي، مع وجود تشابهات مذهلة بين الاثنين. في الأساطير غالبا ما يُخلق أول البشر أو يولدون بنفس الطريقة التي ينشأ بها الكوكب. في بعض القصص تفقس الأرض من بيضة وكذلك أول البشر؛ أو يُشكّل الخالق الأرض من الطين وأول الناس كذلك. الكوكب المُجهَد، والبشرية الفانية، هذا أيضا حالنا كأفراد. لقد فسر المحللون النفسيون انفجار غشاء السائل

11- Horcasitas in Dundes 191.

المحيط بالجنين على أنه أول طوفان نهرب منه.[12] لم يشهد أحد أبدا بداية ونهاية العالم، لكن الناس يعرفون أنهم وُلدوا وأنهم حتما سيموتون. وفي الأساطير يُسقطون موقفهم الفردي على الكون.[13]

12- Dundes 1988: 168.

13- ناقشت هذا في كتابي (في البدء لم يكن هناك أحد).

نهايات الماضي

منذ بضعة آلاف عام حُفظت بعض القصص عن النهاية كنصوص لأول مرة – منقوشة على ألواح طينية في بلاد ما بين النهرين، المعروفة اليوم بالعراق، مكتوبة بالسومرية؛ أقدم الخطوط البشرية. وعند نهاية القرن التاسع عشر تم فك شفرة أول قصة عن الطوفان مكتوبة على ألواح الطين، وفيما بعد تم الكشف عن أجزاء ونسخ أخرى. إحدى روايات الطوفان تم إدخالها في ملحمة جلجامش الشهيرة، وحكاها **أوتنابيشتِم** العجوز الحكيم، الذي يعني اسمه: «لقد وجدت الحياة». كان هو وزوجته هما الناجيين الوحيدين من الطوفان والشخصين الوحيدين اللذين قُدّر لهما أن يصبحا خالدين. أما جلجامش بطل القصة فهو في بحث يائس عن الخلود، لكنه مثل كل الناس على وجه الأرض يجب أن يتقبل حدود الوجود البشري.

كان لا بد أن يأتي الموت إلى العالم، عاجلا أو آجلا. لكن لماذا؟ تفسر بعض القصص الأمر بأنه عندما خلقت الآلهة أول الناس، أخطأت بعدم وضع حد لعمر الإنسان منذ البداية. ونتيجة لهذا ظل الجميع أحياء واستمر البشر في التكاثر دون كلل. وأصبحت الأرض مرهقة من التكدس السكاني المفرط والضوضاء المحطمة للأعصاب. في (أتراخيسيس) وهي رواية أخرى من بلاد ما بين النهرين لقصة الطوفان تعود إلى حوالي عام 1700 قبل الميلاد، وجدت الآلهة أن الضوضاء المتزايدة من البشر غير محتملة:

«كانت الأرض مزعجة كثَوْرٍ يخور.»[14] وكان لا بد من التعامل مع هذه المشكلة. في بعض الأساطير فكرت الآلهة في حلول مؤقتة لكبح النمو السكاني عن طريق إرسال الطاعون، والقحط، والمجاعة، والإجهاض، وموت الأطفال، وما إلى ذلك. ومع ذلك، لم تحل هذه الإجراءات المشكلة؛ لذلك اختارت الآلهة في النهاية التدمير الكامل للجنس البشري. لكن نجا القليل من الناس وبدأ التكاثر مرة أخرى من جديد. أخيرا قررت الآلهة أن تؤسس للموت مقررة أن كل إنسان عليه أن يموت عندما يحين أجله – وليس فقط في بلاد ما بين النهرين.

في ملحمة (ماهابهاراتا) الهندية، مثلا، كان العالم قد أصبح ممتلئا للغاية بالبشر الخالدين حتى أن الإلهة (الأرض) لم تعد تستطيع تحمل العبء بعد ذلك، وبدأت تغرق في المياه. وغدا (براهما) منزعجا للغاية. هل كان لزاما عليه أن يدمر خلقه هو لكي ينقذ الأرض؟ في النهاية، ومن فتحات جسده، خرجت امرأة سوداء ترتدي ثيابا حمراء، لها عينان حمراوتان وكفان وباطنا قدمين حُمر، مرتدية أقراطا جميلة وحليا أخرى: سُميت هذه الإلهة بالموت، لكنها لم تحب مهمتها على الإطلاق، وحاولت الرفض لفترة لا بأس بها، لكن في النهاية كان عليها أن تخضع لإرادة (براهما). ومنذ هذا الوقت، تسبب الموت في محدودية حياة

14- Myths from Mesopotamia 2000: 18.

الفرد – مقيدا بكفاءة النمو اللا محدود للبشرية.

لو حدث بعد كارثة أولى أن حصل إنسان أو أكثر على فرصة ثانية، يمكن للآلهة أن تنتهز هذه الفرصة عينها لكي تُبطل الخلود البشري، على سبيل المثال كما في أسطورة لشعب فانج من الجابون، حيث بعد الخلق والتدمير الأول لم يُقلع الإله (نزامي) عن مشروعه وبدأ الأمر كله من جديد بنشاط، خالقا النباتات والأشجار والحشرات والأسماك والطيور والحيوانات الأخرى، بل وفي النهاية صنع مخلوقا جديدا على صورته، بنفس الشكل الإلهي. لكن (نزامي) كان قد تعلم درسًا. على نحو أكثر حزنا وأكثر حكمة صنع هذا الإنسان الجديد دون خلود: «كان هذا الإنسان، يا أصدقاء، مثلي ومثلكم. وأصبح أبانا جميعا.»[15]

15- Trilles 1905 : 130-136

قصص الطوفان حول العالم

لم تكن تنويعات وتشعبات أقدم قصة مكتوبة عن الطوفان منتشرة فقط في بلاد ما بين النهرين، لكنها كانت موجودة كذلك في سوريا، والأناضول، وغيرهما. فقد وُجدت أجزاء من قصة جلجامش في إسرائيل مثلا، بالقرب من حيفا. تعود قصة نوح التوراتية في أصلها إلى قصة الطوفان البابلية، ولقد حاول الباحثون أن يثبتوا أن هذا الطوفان لا بد وأن يكون قد حدث في أرض دجلة والفرات. في بلاد ما بين النهرين نفسها كانت قصة الطوفان تُعتبر حقيقة تاريخية. ولم يكن الطوفان في قصة (ديوكاليون وبيرا) في اليونان يؤخذ على أنه أقل من حدث تاريخي، حتى على يد أرسطو. وتؤكد القصة اليونانية نفسها على أن الطوفان الذي نجا منه هذان الشخصان العجوزان كان قد أغرق العالم بأسره. وفقا للجيولوجيين، ربما كان هناك انفجار لبركان (سانتوريني) شمال كريت في بحر إيجه، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد أو قبل ذلك، تبعته موجة تسونامي هائلة. ربما ألهمت هذه الكارثة تلك القصة.

فيما يتعلق بالطرق التي يحاول الناس بها الهروب من الماء المرتفع، تشبه قصص الطوفان بعضها البعض. يجد الناجون المحظوظون جبلا عاليا، أو صخرة أو قمة شجرة ترتفع فوق الماء، لكنهم عادة يطفون فوق طوف أو في مركب، جذع شجرة أجوف أو ثمرة قرع ضخمة منتظرين أن يغيض ماء الفوضى

أو ينسحب – بالضبط مثلما هو الحال في قصة سفينة نوح في العهد القديم. وهي القصة التي يشير إليها القرآن كذلك. توجد أيضا قصص الطوفان في الأمريكتين، من ألاسكا إلى تييرا ديل فويجو. نحن نعرف أنه منذ زمن بعيد انتقل الناس من نصف الكرة الشرقي إلى نصفها الغربي عن طريق مضيق بيرينج، لكن وفقا لعلماء الأنثروبولوجيا فإن هذه الهجرة لم تكن قد حدثت بالفعل قبل أن توجد قصة نوح.[16]

يعشق الناس حكي القصص للآخرين، وهذه هي الطريقة التي تنتقل بها القصص من جيل إلى التالي ومن جزء من العالم إلى الآخر. لكن الأمر لا يقتصر على هذا فقط، ففي أجزاء مختلفة من العالم يخترع الناس قصصا تحمل تشابها مذهلا مع بعضها البعض؛ لأن الناس يتصارعون مع نفس المخاوف في كل مكان.

لقد انتشرت قصة نوح والسفينة تدريجيا في كل مكان في العالم على يد المبشرين. ومنذ ذلك الوقت تبنّت القصة التوراتية عناصر من القصص المحلية، مثلا في أوروبا حيث تأثرت قصص الطوفان المحلية بقوة إما بالكتاب المقدس أو بقصة (ديوكاليون وبيرا) اليونانية، وأحيانا بعناصر من كلتيهما، كما في قصة (برامزيماس) الليتوانية التي يعاقب فيها الإله الأعلى الأشرار على الأرض بأن يبعث (الريح) و(النار)، وهما عملاقان يدمران

16- Vitaliano 1973.

كل شيء. وكان جدًّا الليتوانيين اللذين نجيا عجوزين، الأمر الذي أحزنهما، لكن الرب أرسل إليهما قوس قزح الخاص به ليطمئنهما ونصحهما «أن يقفزا فوق عظام الأرض» وهي عبارة تبدو مألوفة لهؤلاء الذين يعرفون القصة اليونانية. [17]

لا بد أن الناس يتساءلون بعد أي كارثة مهلكة عن سر النهاية: هل الأمر مسألة عرضية أم أنه لن يبقى هناك أي مستقبل؟ أصبحت الصلوات والتسابيح والأضاحي وسائل هامة لاسترضاء الآلهة، وللحيلولة دون مأساة عالمية أخرى قد يمكن منعها من الحدوث مرة أخرى. لكن إذن، لماذا حدثت أصلاً؟

17- Andree 1894: 116.

لماذا جاءت النهاية؟

في قصة من قصص السكان الأصليين لأستراليا، ترك إله القمر (باهلو) السماء تمطر حتى غرقت الأرض، كعقاب لرجل واحد فقط رفض أن يعير واحدة من أكياس قطع الخشب الملوية وجلد حيوان الأبوسوم للقمر. في هذه الأثناء قُتل كل البشر الآخرين الأبرياء سويًا مع ذلك الآثم الواحد والوحيد.

ومع ذلك، فإن أي كارثة عالمية نادرا ما تكون بسبب النزوة الطارئة لإله مُحبَط، لكن صبر الآلهة الطيبين ذوي النوايا الطيبة ليس صبرا بلا نهاية. عادة ما يُقدَّم محو البشرية كعقاب على الغطرسة والشر والضوضاء والتكدس أو مزيج من كل هذا. وفي بعض الحالات لا يتم اتخاذ قرار الإبادة الخطير إلا بعد مداولات موسعة في اجتماع مجلس خاص من الآلهة. في قصة نوح في العهد القديم، يندم الرب على أنه صنع البشر، بسبب شرهم. هنا وفي قصص أخرى يؤدي افتقار البشر للاحترام تجاه الآلهة وأقرانهم من البشر إلى طوفان عالمي.

أحد الأشكال المتكررة من سوء السلوك البشري هي الافتقار إلى كرم الضيافة. قرر كبير الآلهة اليونانيين زيوس (راعي حسن الضيافة) أن يدمر البشر بسبب انتهاك الناس لقوانين حسن الضيافة. ولم ينجُ من هذه الكارثة العالمية إلا ديوكاليون وبيرا التقيَّان بفضل تقواهما وكرمهما.

كان ديوكاليون، ابن بروميثيوس، ملكا على (ثيساليا). عندما قرر زيوس أن يدمر العالم، حذر بروميثيوس ديوكاليون ونصحه أن يبني خزانة خشبية هائلة ويجمع مؤنا من الغذاء. أمطرت لتسعة أيام وتسع ليال، وارتفع الماء بشدة حتى أنه لم يعد مرئيًا غير قمة جبل بارناسوس فقط. ورغم أن ديوكاليون العفيف وزوجته بيرا قد نجيا من الكارثة، إلا أنهما ووجها بمشكلة لا يمكن التغلب عليها فيما يبدو؛ لأنه كيف كان يمكن لشخصين عجوزين أن يعيدا تعمير الأرض؟ في حزن بائس استشارا الوحي المقدس، لكن الإجابة كانت غامضة: كان عليهما أن يلقيا وراءهما بعظام أمهما. وقد فسرا هذه الكلمات الغامضة على طريقتهما: كانت أمهما هي الأرض، وكانت عظامها هي الأحجار. في رواية أوفيد الجميلة تستمر القصة هكذا:

من كان سيصدق ما حدث بعد ذلك، لو لم يكن التراث القديم شاهدا عليه؟ كانت الأحجار التي رمياها وراءهما قد بدأت تفقد صلابتها وجمودها، وقليلا قليلا صارت أكثر ليونة. وبعد ذلك، بدأت حالَ لينها تكتسب شكلا خاليا من الغموض. وبمجرد أن زاد حجمها، اكتسبت طبيعة رقيقة، متخذة ملامح شبيهة بالبشر، رغم أنها لم تكن واضحة بعد. كانوا أشبه بتماثيل رخامية غير مكتملة، بدأ العمل فيها لكن لم يتم الانتهاء من نحتها على شكل صحيح.[18]

18- المصدر: أوفيد. النص الأصلي وترجمات عديدة.

موضوع افتقار الناس المتزايد لحسن الضيافة يوجد في أماكن كثيرة، من جنوب شرق آسيا إلى أمريكا الهندية. في هذه القصص يأتي غريب، الإله متنكرا، إلى الأرض ليضع البشرية في اختبار، كما نجد في رواية من شعب تشاجا في تنزانيا وقصة شيرينتي من بيرو في هذ الكتاب. فقط هؤلاء الذين يتعاملون مع حسن الضيافة التقليدي بجدية هم الذين سينجون من قسوة الطوفان.

قواعد الآلهة

يحتوي عدد كبير من الأساطير على النهاية البشرية منذ البداية مباشرة، وغالبا ما يكون هناك وعي بالدائرة المستمرة من الخلق والفناء. ما حدث منذ زمن بعيد يمكن أن يحدث أيضا لنا؛ تلك هي الرسالة الموجهة لمن يستمعون إلى القصة: سننتهي نحن أيضا على نحو سيء إلا إذا احترمنا القواعد التي ابتكرتها الآلهة لنا، القواعد التي تبني المجتمع، وتمنعنا من أن ينتهي بنا الأمر في اضطراب وفوضى بلا شكل. القواعد والنظم والجزاءات والتراتبيات الاجتماعية تسوغها القصص الأصلية، وتؤكدها قصص الطوفان وغيرها من القصص عن النهاية كعقوبة مستحقة.

بعد أن أبيد معظم البشر، يحاول الناجون النادرون القلائل باستماتة أن يسيطروا على الفوضى. يصنعون بداية جديدة بقواعد جديدة، سواء حددتها الآلهة أم لا. لا يحدث هذا فقط في قصة الطوفان التوراتية، بل في كل مكان كذلك، مثلا في أسطورة لشعب فانج في الجابون. بعد أن دمر الإله (نزامي) الأرض بالنار، خلق كل شيء من جديد وأعطى الناس القوانين:

نادى (سيكومي) و(امبونجوي) وأبناءهما، ناداهم جميعا، صغارا وكبارا، وكبارا وصغارا. «هذه هي القوانين التي أمنحها لكم..» قال «ومن الآن فصاعدا سيتوجب عليكم أن تحفظوا هذه القوانين:

لا تسرقوا من أحدكم الآخر.

لا تأخذوا زوجة شخص آخر دون أن تدفعوا مقابل هذا.

لا تقتلوا أي أحد، إلا إذا كان شخصا يؤذيكم.

لا تخرجوا في الليل وتأكلوا أرواح الناس الآخرين.

هذا هو ما أطلبه منكم. عيشوا في سلام مع بعضكم البعض.

هؤلاء الذين يحافظون على قوانيني سأكافئهم.

وهؤلاء الذين لا يفعلون، سأعاقبهم.

ليكن هذا.»[19]

إحدى القواعد الأساسية لمعظم إن لم تكن جميع المجتمعات هي تحريم زنا المحارم. فممارسة الجنس مع أقارب الدم المباشر مُحرَّم في معظم الثقافات، وخرق هذه القاعدة قد يتسبب في حدوث طوفان. إذن ما العمل إذا كان الناجيان الوحيدان من الغرق، نتيجة للطوفان، شخصين من أقارب الدم المباشر: أخ وأخت، أم وابن، أب وابنة، وكيف لهذين الاثنين إذن أن ينجبا الذرية الجديدة؟ أزمة خطيرة يجب أن يحلها حكاؤو القصص. في قصة من قبائل ماندايا في مندناو بالفلبين، تنجو امرأة حامل واحدة فقط من الطوفان، تلد ابنا وتتزوجه.[20]

19- Trilles 1905: 136.

20- مثل هذه الأساطير كثيرة جدا خاصة في شرق وجنوب شرق آسيا. مثلا هو لينج-جوي 275.

لا تعرف الضرورة قانونا، ولا بد أن تستمر الحياة، تلك هي الرسالة. لكن في بعض القصص، هناك إحساس بأن الذرية الآتية من علاقة سفاحية أمر إشكالي لا يُحتمَل لدرجة أنه يتم تقديم خطوة وسطية مبتكرة. مثلا، لا تلد الأخت ابنا، لكنها تلد حقيبة جلدية يخرج منها عشرة صبيان وتسع بنات، كما يحدث في قصة فيتنامية من شعب ياو. وفي تنويعة صينية لا تلد الأخت طفلا بل كرة من اللحم. وقد وجد الوالدان هذا المخلوق غريبا جدا حتى أنهما قطعاه إلى أجزاء صغيرة وضعوها في كيس. بعد قليل هبت عاصفة من الريح فتحت الكيس ونثرت تلك القطع الصغيرة في الهواء. لكن عندئذ، عندما هبطت على الأرض أصبحت كلها رجالا ونساء، وسموا أنفسهم على أسماء أماكن هبوطهم كل بدوره: فهؤلاء الذين وجدوا أنفسهم على أوراق الشجر أطلق عليهم «بي» (ورقة الشجر)، وهؤلاء الذين هبطوا في الغابة يُدعون «مو» (شجر الغابة). وهكذا عمَّر الرجال والنساء العالم مرة أخرى (جنوب غربي الصين).[21] في جميع الأحوال ليس أمام أقارب الدم المباشر أي اختيار غير ارتكاب زنا المحارم، على الرغم من تحريمه. ففي عالم خالٍ يكون إيجاد الذرية هو الأولوية رقم واحد.

21- From South West China. Cf Yuan Ke. Dragons and Dynasties: An Introduction to Chinese Mythology. Selected and translated by Kim Echlin and Nie Zhixiong. New York etc.: Penguin Books, 1993: 8-9; Collection CASS; Lihui Yang, Deming An, Turner, Handbook of Chinese Mythology.

في الأساطير يوصف غالبا العالم قبل إعداد خشبة العرض والموقف بعد تدميره مباشرة بمفردات متشابهة على نحو مذهل.

فِي البَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَمَاوَاتِ والأَرْضَ. وَكَانتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ المِيَاهِ. (سفر التكوين، الإصحاح الأول، 2-1).

في البدء لم تكن هناك آلهة ولا بشر. كانت مياه المحيط تحتضن العدم. (أهوم، جنوب آسيا)

في البدء كان العالم هيوليا مائيا بلا شكل، أرضا خرابا سبخة. (يوروبا، نيجيريا)

في البدء لم يكن هناك شيء غير الماء والظلام. وكان الماء يضرب بعضه. (يوما، أريزونا)

كل شيء كان ماءً، كان الماء هناك على أبعد ما تستطيع العين أن ترى. (هيل ميري، الهند) (Elwin 1958:15)

في البدء كان العالم مخاضة، لأن مياه الهيولي والطين كانا يتقلبان فيه. (آينو، اليابان)[22]

22- Terwiel personal information; Erdoes and Ortiz 77 / Bierlein 63; Farmer 12/ Sproul 215

في البدء يبدو العالم مائيا، موحلا وسبخا، وبعد الطوفان تعود الفوضى المائية من جديد.

جلب رُووَا مياها هائلة من الغابة في الأعالي. سحبت المياه بقوتها الأشرار مع كل الآخرين، وبيوتهم وطعامهم وكل ممتلكاتهم، وأبقارهم وخرافهم وماعزهم... خلت البلد بأكملها من جديد، ولم يبق أي شيء. (تشاجا، تنزانيا)

فاضت الأنهار، وغرقت الأرض كلها بمياه الفيضانات. [...] الماء الذي غطى الأرض كلها كان هو الماء الكبير المسمى داما (البحر)، الماء الذي بلا شطآن. (ماكيريتاري، فنزويلا)

بعد فترة سمع الناس دمدمة البحر وقعقعة المرجان، وقصفت الأمواج أغصان الشجر. وتناهى صوت البحر المندفع وهو يغطي صخور الشاطئ. [...] وكلما تقدم الليل، تلاطمت مياه البحر صاعدة وارتفعت عاليا فوق اليابسة. (راياتيا، بولينيزيا الفرنسية)[23]

العالم الموحل ينتظر بداية جديدة. الاختلاف الوحيد هو أنه في معظم قصص الخلق والأصل لم يأت الناس إلى الوجود إلا بعد أن جعل الخالق الأرض مهيأة لإطعامهم وإيوائهم. أما في قصص الطوفان، فإن القلة الناجية تجد نفسها ضائعة وسط الحطام والأنقاض.

23- Dundas 1924:120-121Civrieux 53-54; 80-81; Teuira 448-449

رأوا البحر ينزلق عائدا إلى المحيط؛ وفي الصباح كان المدُّ منخفضا وحاجز الصخور جافا تماما من جديد. وعندما نظر الناس نحو الأرض، رأوا أغصان الشجر كلها مكسورة ومنزوعة من جذورها. وكان البحر بحذاء الساحل مختلطا بطمي الأرض. كانت هناك صخورهم الدبقة، وأغصان المرجان، والأسماك الميتة والأصداف منثورة فوق الشاطئ. ولم يكن هناك أي بشر على اليابسة؛ فقد جرفهم البحر جميعا. (راياتيا 451)[24]

ليس بمقدور الناجين أن ينتظروا في هدوء إعدادًا إلهيا للمشهد كما صورته قصص البدء. هنا يجب على البشر أن يعتنوا بأنفسهم. لا بد أن يرتبوا الفوضى التي سببها الطوفان، ويجب أن تجعل جهودهم الشخصية الأرض صالحة للسكنى ومُرتَّبة من جديد. هذا الترتيب مؤقت: إذ يبدو أن البشرية مقدور عليها أن تحاول التوازن باستمرار على حافة الفوضى.

24- Teuira 451.

تقريب النهاية

بعدَ هذا نظرتُ وإذا بابٌ مفتوحٌ في السماءِ والصوتُ الأولُ الذي سمعتُه كبوقٍ يتكلمُ معي قائلاً «اصعدْ إلى هنا فأريكَ ما لا بدَّ أن يصيرَ بعدَ هذا.» (سفر الرؤيا 4:1)

في الأزمان القادمة ستذيب البحيرات أساسات العالم وستعزل الأنهار أجزاء الدنيا. عندئذ ستكون هذه هي نهاية العالم. (أوكاناجا، أمريكا الشمالية)[25]

جنبا إلى جنب القصص التي أبيدت فيها البشرية في الماضي، هناك قصص تشير إلى مأساة عالمية في المستقبل. وتعلن العديد من هذه القصص أنه سيأتي مع هذه النهاية الحساب: سينتهي الأمر بالأشرار نهاية سيئة، بينما سيدخل المختارون مملكة السلام أو الفردوس، لكن كيف ومتى؟

تتحدث أسطورة نوردية عن جليد باهر قادم من جميع الاتجاهات، عن شتاء قاس قارص ورياح تنفذ إلى النخاع. ستتوقف الشمس عن أداء وظيفتها ولن يقاطع أي صيف ذلك الشتاء. سيأتي زمن حرب وشر وسفاح قربى؛ ستحكم البلطة والسيف

25- Farmer 127; Indian legends from the northern Rockies / by Ella E. Clark; Norman : University of Oklahoma Press, 1966)

قبل أن يسير العالم إلى دماره. (الأساطير الاسكندنافية).[26]

علم الأخرويات Eschatology هو فقه الأمور الأخيرة.[27] في السرديات الأخروية تقع النهاية أمامنا. مثل هذه القصص ترسم صورا لما سيحدث: سيقود الحساب الناس إلى الجنة أو الجحيم أو المطهر أو الخلاص. في الكتاب المقدس جرى تخيل النهاية في سفر رؤيا يوحنا، المسمّى أيضا بالأبوكاليبس أو نهاية العالم. تقف هذه النبوءة الشعرية ضمن تراث يهودي طويل من النبوءات التي تعلن أن أشرار هذه الأرض، من بني إسرائيل وكذلك من أعدائهم، سيجري تدميرهم. في العهد القديم يتم تقديم يوم الحساب أحيانا على أنه يوم النار الشرهة والدمار. سترتجف الأرض وترتعش السماوات. ستسوَد الشمس والقمر ولن تلمع النجوم بعد ذلك:

والربُّ يُعطي صوتَه أمامَ جيشِه
إنَّ عسكرَه كثيرٌ جدًا

26- The Prose Edda by Snorri Sturluson. (Translated from the Icelandic with an introduction by Arthur Gilchrist Brodeur). New York: The American-Scandinavian Foundation/London: Oxford UP 1929; Die Voluspa / hrsg. und erkl. von Ferd. Detter. Wien: Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-historische Klasse 1899; John Lindow, Handbook of Norse Mythology. Santa Barbara/ Denver/Oxford: ABC CLIO 2001; J.F. Bierlein, Parallel Myths. New York: Ballantine Books 1994: 246-248; H.R. Ellis Davidson, Scandinavian Mythology. London: Hamlyn 1969 ; H.A. Guerbner, Noorsche Harald Hveberg, Of Gods and Giants. Norse Mythology 1972 Oslo, J.G. Tanum 1969:82.

27- يأتي المفهوم في أصله من الكلمة اليونانية eschatos، التي تعني «الأخير».

فإنَّ صانعَ قولِه قويٌ
لأنَّ يومَ الربِّ عظيمٌ ومخوِّفٌ جدًا
فمنْ يُطيقُه؟ (سفر يوئيل الإصحاح 2: 11)

سيأتي يوم الرب بنهاية الصراع بين الشر (الشيطان) وقوى الظلام من ناحية، وبين الخير وقوى النور من الناحية الأخرى. ستأتي مملكة الرب، لن يكون هناك شر بعد ذلك وستجف كل الدموع. ولكن قبل أن يأتي المسيح المنتظر، سيزداد الشر أولا. يعلن سفر الرؤيا عن نهاية تسبقها كوارث كونية، نجوم متصادمة، وشمس سوداء وقمر أحمر بلون الدم. وفي النهاية يسود الأمل بسماء جديدة وأرض جديدة على الوعيد والقدر الغاشم.

يصور الإسلام أيضا النهاية، عندما يعود النبي عيسى إلى الأرض. وينتظر المسلمون الشيعة شخصا كمسيح آخر سيأتي بمملكة العدل، ويحرر العالم من الكفر في آخر الزمان، وهو المشار إليه أيضا في الكثير من القصص المشكوك في أمرها.

عندئذ سيرسل الله مطرا لن يصمد أمامه بيت من طين ولا خيمة من وبر، وسيجلو الأرض حتى تبدو كالمرآة. ثم سيقال للأرض أن تؤتي ثمرها وتجدد نعمها. ونتيجة لهذا ستنمو رمانة كبيرة، كبيرة جدا حتى أن جماعة كاملة من الناس سيكون بمقدورها أن تأكل منها وتأوي إلى ظلها. وستدر الناقة الحلوب مقدارا هائلا من الحليب حتى أن قبيلة بكاملها سيكون بمقدورها

أن تشرب من لبنها. [...]

ستكون أول علامة هي أن تظهر الشمس من المغرب، وسيظهر الوحش قبل الناس في وسط النهار، وأي واحد من هذين الاثنين سيأتي أولا، سيتبعه الثاني على الفور. (العربية)[28]

في المجتمعات الأصغر نطاقا تعلن النهاية الوشيكة عن نفسها عن طريق إشارات الطبيعة، والنُذُر غير المعتادة، مثل الشهب الطائرة عبر السماء. سيتغير لون الشمس والقمر. سيرتفع الماء. سيتغير المناخ وستندلع الحروب في كل مكان.

بالرغم من أن قصص الطوفان تتحدث عما قد حدث في الماضي، وقصص نهاية العالم تشير إلى ما سيحدث؛ إلا أن الماضي والمستقبل غالبا ما يكونان مرتبطين بشدة. (بيروسوس)، هو كاهن بابلي من القرن الثالث قبل الميلاد كتب باليونانية الشائعة معتقد «السنة الكبيرة». وفقا لهذه الفكرة فإن الكون سرمدي، لكن يحدث له تدمير على فترات. في السنة الكبيرة سيتم تجديد الأمر مرة أخرى.

وتقدم القصص الهندوسية سلسلة مستمرة من الفناء والإحياء. في الهندوسية، يخلق (براهما) ويعيد الخلق. وأثناء دورة حياته، يحفظ ڤشنو العالم، وبعد ذلك يدمره شيڤا. تنقسم الدورة إلى

28- Vellankode 383 and 442.

أربعة عصور تحدث طبيعيا وتتكرر كـ (دارما)؛ أي الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الأشياء، النظام الاجتماعي المثالي للعالم. وتشكل العصور الأربعة معا (دهرا كبيرا). في خلال هذه العصور الأربعة يغدو الناس أكثر شرا ويعيشون لفترة أقصر. ويُعتبر عصرنا هو العصر الرابع. أحيانا تصاغ التنبؤات والأحداث في وحدة واحدة. مانو هو آدم الهندي، أبو الجنس البشري الذي تسمَّى على اسمه – فالكلمة الهندية للإنسان هي مانوڤا. وبعد انتهاء كل عصر سيأتي (مانو) أو معلم جديد.

وفي البوذية تشير «نهاية العالم» إلى النرڤانا، وهي حالة ذهنية يتم التخلص فيها للأبد من الرغبة والكراهية والجهل. لدى البوذيين أيضا تصور دائري عن الزمن مقترن باعتقاد في الدمار الدوري للكون، لكن السماوات العُلى ستبقى، وسيجدد البوذا القادم النظام الاجتماعي.[29] عند نهاية هذا (الدهر الكبير) ستكون (دارما) قد تقوضت، ويتم تدمير العالم المادي عن طريق كوارث المياه والنار والرياح، تلي ذلك مرحلة بينية يسود فيها الخواء والظلام.

هناك أوقات طيبة وأوقات سيئة في كل عصر كوني. تعلن النصوص التنبؤية عن قدوم بوذا المستقبلي. بعد (شاكياموني) سيكون (مايتريا) هو بوذا القادم في نظامنا العالمي. في المستقبل البعيد سيولد (مايتريا) – الذي يقيم الآن في سماء

29- Zürcher p. 7.

توشيتا الفردوسية – من جديد على الأرض ويخرج من أمه نظيفا تماما.

في شكلها الأصلي من الدمار الدوري للعالم يمكننا بالكاد أن ندعوها بالأخروية، لأن فناء العالم في البوذية «ليس مقترنا بحساب نهائي، ولا بفصل بين الناجين والملعونين، وطبعا ليس بإقامة سماء جديدة وأرض جديدة. عندما يُدمَر العالم، لن يكون أكثر من صَدَفة خاوية. وعندما يأتي إلى الوجود نظام عالمي جديد بعد دهر الوجود المُعطّل [...] يستمر العرض من النقطة التي توقف عندها من قبل.»[30]

في الأبوكاليبس الفارسي يخاطب «صاحب الإيمان الصحيح» الرب الحكيم (أهورامزدا) حول الموضوع:

أيا أهورامزدا، أسألك عن الحاضر والآتي
كيف سيتم التعامل مع الصالحين،
وكيف سيتم التعامل مع الطالحين،
عند الحساب الأخير؟[31]

30- Zürcher p. 7.

31- Bierlein 1994: 239. في تعاليم زرادشت يتم تجسيد المبدأين المتخاصمين للخير والشر النور والظلام الصواب والخطأ في هيئة أهورامزدا وأهريمان على الترتيب. أو الإله والشيطان الفارسيان القديمان اللذان يخوضان صراعا عميقا. لكن في النهاية سينتصر أهورامزدا وسيفنى أهريمان للأبد.

منذ أقدم عصور المسيحية وهناك جماعات من الناس الذين أصبحوا مقتنعين بقرب حلول نهاية العالم، على الرغم من التحذيرات المتكررة من قِبل آباء الكنيسة المؤثرين، مثل أوغسطين، بألا يأخذ الناس سفر رؤيا القديس يوحنا بشكل حرفي. هذه التحذيرات لم تساعد كثيرا. بدأت حركة الإصلاح البروتستانتي يوم 31 أكتوبر عام 1517، عندما قام مارتين لوثر، وهو راهب ألماني، بدق خمسة وتسعين أطروحة بالمسامير على باب الكنيسة في ويتينبرج، بألمانيا. هكذا كانت المسيحية «الصحيحة» ستتجدد وتُعدّ العالم للقدوم الثاني للمسيح. في عام 1522 ألقى لوثر خطبة فسر فيها علامات الزمان باعتبارها النهاية الوشيكة التي يمكن قراءتها من السماء:

نحن نرى الشمس تظلم وكذلك القمر، والنجوم تسقط، والبشر مكروبين، والرياح تصفر والأمواج تدمدم، وكل الأشياء الأخرى التي أنبأنا بها الرب مسبقا، كلها تأتي لتمر أمامنا كأنها تجيء معا. إلى جانب هذا، نحن لم نر القليل من الشهب، تتخذ شكل الصليب، مطبوعة على صفحة السماء... كم من الإشارات الأخرى، والعلامات العجيبة، قد رأيناها في السماء، في الشمس، والقمر، والنجوم، وأقواس قزح، والأطياف الغريبة، في هذه السنوات الأربع الأخيرة؟ دعونا من فضلكم نعترف بأن هذه إشارات، وإشارات لتغير ما هائل وملحوظ.[32]

32- Martin Luther qtd in Gleiser 52.

رأى الكثيرون من معاصري لوثر الصدع الذي سببته حركة الإصلاح للكنيسة الأم عام 1517 كعلامة واضحة للنهاية القريبة، التي اعتقدوا أنها ستحدث قبل عام 1600. الجماعات الراديكالية، مثل القائلين بتجديد العماد Anabaptists الذين رفضوا كلا من المعتقدات الكاثوليكية واللوثرية، أرادت أن يصبح التوقع الأخروي بمملكة الرب واقعا في أيامهم هم، بحيث يختفي أخيرا الفساد والظلم في نظام عالمي جديد. خلال ثلاثينيات القرن السادس عشر كان يمكن مرارا وتكرارا رؤية واحد من القائلين بتجديد العماد يجري عاريا عبر شوارع أمستردام صائحا: «يا ويلتاه، يا ويلتاه، من غضب الله.»[33]

وماذا عن زمننا؟ هناك فرق بين عقيدة الأبوكاليبتية وعقيدة الألفية. حيث تتعلق الأولى أساسا بالأحكام القدرية وتسوية الحسابات، وتتصل غالبا بالنهاية، بينما تتعلق الثانية بشكل أكبر بالبعث والبدايات الجديدة. إن حركة 2012 ليست ظاهرة منعزلة. فقبل تغير الألفية الأحدث كانت هناك جماعات عديدة تعلن ليس فقط مشاكل تغيير التقويم في الأنظمة الحاسوبية، بل نهاية العالم أيضا. في عام 1993 كشف استطلاع للرأي العام أن حوالي 53 في المائة من الناس في الولايات المتحدة الأمريكية كانوا يؤمنون بأن القدوم الثاني للمسيح وشيك. وسيلي ذلك كوارث رهيبة ستدمر الشر كما تنبأ الكتاب المقدس. في ذلك العام

33- Gleiser 52; Weber 31.

نفسه انتهت الطائفة الداوودية في تكساس نهاية مأساوية، بعد أن دخلوا في صراع مع حكومة الولايات المتحدة، مع رغبة قائدهم ديفيد كوريش في أن يصبح فاتح الأختام السبعة المذكورة في الإصحاحين السادس والسابع من سفر الرؤيا، وأن يجعل أتباعه يطيرون إلى السماء في أطباق الرب الطائرة. بعد حصار استمر واحدا وخمسين يوما اشتعلت النيران في مقر أعضاء الطائفة، ومات 73 رجلا وامرأة وطفلا سويا مع قائدهم. وبعد حوالي عشرين عاما «يؤمن 41 في المائة بالتمام والكمال من الناس في الولايات المتحدة بأن يسوع المسيح سيعود إلى الأرض بشكل قاطع أو محتمل قبل عام 2050. يرتفع هذا الرقم إلى ما يقرب من 6 من كل 10 عند مناقشة أعضاء الطائفة الإنجيلية، وأكثر من نصف الأشخاص الذين يعيشون في الجنوب».[34]

تشترك القصص الأبوكاليبتية في كونها صريحة للغاية حول ما يتعلق بما سيحدث للبشرية: إنها تعرف! وفقا لأتباع النبي الفارسي (زرادشت)، مثلا، سيُدمَّر الأشرار في نهر من النار والمعدن المذاب، بينما الأشخاص ذوو المستويات الأخلاقية العالية سيُكافَؤون بالحياة الأبدية. ولا تقل القصص الأبوكاليبتية عن قصص الدمار الماضي في كونها توضح أن الناس ميالون إلى الشر أكثر من الخير، مع كل ما يستتبعه ذلك من عواقب.

34- https://www.good.is/articles/more-than-40-percent-of-americans-believe-the-rapture-is-coming

هكذا يوضع فردوس ساحر في مقابل جحيم مريع. وقبل أن تأتي النهاية للجميع، نتلقى تحذيرا أخيرا:

> ذات يوم سينتهي الأمر. ونحن، البشر، من سيجلبون هذه النهاية. يرجع الأمر إلينا في الحفاظ على قانون الخير على الأرض. إذا لم نتشبث بالخير، سيسود الشر بدلا من ذلك. (فانج، الجابون)[35]

إذن، لو تصرفنا على نحو طيب، قد نتمكن من تأجيل المأساة. ويعني ذلك العمل بجد وإرضاء الآلهة بالتسبيح والأضحيات والسلوك الطيب. لكن عندئذ، هل ستكون النهاية بالفعل هي النهاية؟

> نحن نعيش في عصر الشمس الخامسة الآن، شمس المركز، شمس الزلازل، عصرنا نحن. ستدمرنا في النهاية، إذا لم نخلص أنفسنا بالعمل والتضحية. (آزتيك)[36]

في لحظات الخوف والارتباك يتشبث الناس حتى بقشة. وهذا هو السبب في أن الأساطير التي تشير إلى النهاية المحتومة، تتضمن غالبا وعدا ببداية جديدة. إن فكرة الفناء التام مرعبة أكثر مما يُحتمل. النهاية الحقيقية للبشرية تقع فيما وراء الخيال البشري. ضد كل اليأس، ضد كل محدودية الحياة، استمر الناس

35-Trillee ; Farmer 132
36- Farmer 129

في الإيمان بمستقبل ممكن. لا بد أن يكون هناك أمل ما باقٍ، سفينة، قبو، مكان آمن للاختفاء، آخرة. ضمانة ما من أجل بدايةٍ جديدة.

سيوف ديموقليس

أليس وجود البشرية في حد ذاته معجزة؟ تتفق العلوم بالإجماع على هذا. وفي رواياتها الكثيرة تعكس الأساطير هشاشة وضعف وجودنا. وحتى برغم أنه لا يمكن إثبات ذلك، فإننا نفترض أن البشر هم الكائنات الوحيدة التي تعي بأنها خاضعة للفناء والموت.

وعلى الرغم من هذا الوعي فإن أسلافنا لم يغرقوا أبدا في اليأس الجماعي. لقد وجدوا السلوى ليس فقط في الدين، بل أيضا في جمال الفن والثقافة. بالفعل تملك الموسيقى والفن تأثيرا صحيا على الروح الإنسانية، وقد وجد الناس في كل أنحاء العالم الراحة في القصص التي ظلوا يحكونها لبعضهم البعض منذ أن بدأت البشرية.

طبقا لعلماء الحفريات، لم يكن تاريخ الحياة على الأرض إلا سلسلة من الكوارث. علاوة على ذلك، يعود الفضل فقط إلى حالات الدمار الأسبق في أن يصبح الوجود البشري ممكنا. بالنسبة للجيولوجيين من الواضح أن كويكبات جديدة ستضرب الأرض، رغم أنه ليس من المتوقع على نحو جاد أن يحدث أي تصادم من هذا النوع في المستقبل القريب. وهناك سيوف عديدة أخرى لديموقليس تتأرجح فوق رؤوسنا.

ذات يوم سيكون البحث العلمي مهلكا للبشرية، هكذا يقول

المتشائمون. من الممكن أن تؤدي تكنولوجيا النانو إلى تدمير النظام البيئي، وهل نحن واثقون تماما أن الفيزياء النووية ليست خطرا؟ يمكن للتكنولوجيا الحيوية أن تخلق تشوهات غير متوقعة بين النباتات والحيوانات والبشر. يدرس علم الفلك مستقبل كوكبنا ويضع في اعتباره بجدية نهاية حَرْفية في المستقبل البعيد. ويرى النيازك الساقطة باعتبارها أكبر تهديد للبشرية، كارثة يمكن ألا تُعَدّ البشرية، لمرة واحدة، مسؤولة عنها.

هل يصنع ذلك أي فارق لمصير الضحايا؟ هكذا اعتقد الفيلسوف الصيني منسيوس (القرن الرابع قبل الميلاد):

عندما ترسل السماء الكوارث،
هناك أمل في النجاة منها؛
وعندما يجلبها الإنسان على نفسه،
ليس من ثمة أمل في الهروب.

في حاضرنا نحن، الحاضر الذي تواجهه الزيادة السكانية والاستهلاك المفرط، نكون نحن الرابط الضعيف بالمستقبل، مستقبل هو مسؤوليتنا في الوقت الحاضر.

دائما ما تُلفت الجرائد الانتباه إلى الكوارث التي قد تؤدي إلى النهاية. تتحدث وسائل الإعلام عن التغير المناخي، وإزالة الغابات، وطبقة الأوزون المصابة. ربما ينتظرنا وباء قاتل، أو حرب عالمية

جديدة بأسلحة الدمار الشامل، أو عصر جليدي جديد. لكن الناس يميلون لأن يكونوا في أقصى حالات خوفهم من تهديد المجهول: أين ينتظرنا ذلك القدر الغاشم؟ تشترك النظريات العلمية مع الأساطير في أنها تبحث عن تفسيرات في الوقت الذي تراقب فيه الحقائق – سواء كان ذلك من خلال مخاطبة الأساطير لنا عبر المجازات الشعرية أو مخاطبة النظريات لنا بالمصطلحات الأكاديمية.

إن أحلام الفاشية والشيوعية والسوق الحر السعيد قد ماتت ورحلت. يحاول المزيد والمزيد من الناس في العالم الغربي أن يعيشوا بلا أساطير. إذن ما الذي ينبغي علينا أن نفعله بهذه السرديات الميثولوجية القديمة؟

اليوم تتخذ هذه القصص القديمة عن النهاية معنى جديدا في ضوء التلوث المرعب والاحتباس الحراري، والحاجة المُلّحة لتأمين مستقبل البشرية. في السرديات الميثولوجية عن النهايات الماضوية والمستقبلية للعالم، يجعل الناس أنفسهم مذنبين نتيجة اللامبالاة والقسوة وسوء استخدام السلطة والفساد، يتجاهلون حسن الضيافة، بينما يغدو من الصعب العثور على العدل والتكافل.

إن عقلية «ومن بعدنا الطوفان» اللامبالية قد تُعجّل تماما بنهاية العالم الكارثية. يعود الفضل فقط لجهود هؤلاء الذين يتحملون المسؤولية أمام تهديد نهاية البشرية. لا بد من تجنبها

أو على الأقل تأجيلها، كما يذهب التحذير الثابت. تردد الأساطير أصداء رسائل متطابقة من أجزاء مختلفة من العالم. وتجعلنا نفكر بشكل عالمي أكثر بدلا من التفكير بمفردات محلية مهتمة بذاتها. إن الأساطير القديمة قدم البشرية تقدم لنا إجابات على الأسئلة التي تدور حول مستقبلنا.

إذن، نعم، تملك السرديات الميثولوجية رسالة للمجتمع العالمي المعاصر. يمكننا أن نقرأ قصصا عن النهاية كحساب أخير موجه إلينا جميعا: ما الذي فعلناه من أجل أقراننا من البشر أو لهم؟ هذا سؤال جوهري موجه للناس سواء كانوا متدينين أم لا، سؤال يتصادم مع الفردية والاستهلاكية المتفشية. سؤال يُحوّل التركيز من الاهتمام بالذات إلى المسؤولية المشتركة من أجل عالم يحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى أخلاقيات كونية، عالم لم يعد بإمكانه البقاء دون تعاون عالمي.

محدودية الحياة والمستقبل

مازالت البشرية شابة جدا، عمرها فقط حوالي 300.000 سنة، وحين نتحدث من الناحية الثقافية فنحن لسنا أكبر بكثير من حوالي 5000 سنة. ويمكننا في النهاية أن نتعلم من التاريخ أن الثقافة والفنون والعلوم تتكلف أقل من الحرب بكثير جدا.

ليست نهاية البشرية بالضرورة هي نهاية العالم. نحن ببساطة لا نعرف. وأهل العلم يزداد وعيهم أكثر وأكثر بقلة ما نعرفه. والمستقبل هو مسألة إيمان بالبحث بنفس القدر تقريبا الذي هو إيمان بالأديان والفنون والآداب. في العالم كله هناك ثقة مريحة بالنفس تُبقي الناس مستمرين، كمعتقد تم التعبير عنه بشكل جميل في مسرحية تشيخوف (الأخوات الثلاث): «في غضون قرن أو اثنين، أو خلال ألف عام، سيعيش الناس بطريقة جديدة، بطريقة أكثر سعادة. لن نكون هناك لنراها – لكن هذا هو السبب في أننا نعيش، السبب في أننا نعمل. هذا هو السبب في أننا نعاني.»

بنضالهم لتحرير أنفسهم من أطلال الحروب الكئيبة وغيرها من الكوارث، يتشبث الناس بالأمل مدى الحياة في مستقبل أفضل. ومدفوعين بخوفهم من محدودية الحياة، يمضون في البحث عن بداية جديدة.

قصص عن
نهايات الماضي

آسيا

1. أوتنابيشتِم (الأكدية، بلاد ما بين النهرين)

قال أوتنابيشتِم لجلجامش: «أنت تعرف مدينة شوروباك الواقعة على ضفة نهر الفرات. كانت هذه المدينة قديمة بالفعل عندما قررت الآلهة أن ترسل طوفانا، بمبادرة من الإله (إنليل). كان هناك الأب (آنو) وآلهة أخرى عديدة. أقسموا جميعا يمين السريَّة. وهذا ما فعله أيضا إله الماء (إيا)، لكنه حذرني بتكرار كلماتهم لكوخ من القصب: 'يا كوخ القصب، يا كوخ القصب، يا حائط الطوب، يا حائط الطوب. اسمع يا كوخ القصب، وانتبه أيها الحائط، إلى هذه الرسالة. أيها الرجل من مدينة شوروباك، يا ابن أوبارا- توتو، فكك بيتك، وابن مركبا. اترك كل ما تملك وانشد النجاة. المركب التي ستبنيها ينبغي أن تكون أبعادها ذات نسب متساوية، طولها وعرضها منسجمان. وغطِ المركب بسقف، بالضبط مثلما يغطي المحيط الأعماق. وخذ على سطح المركب بذرة كل الأشياء الحية.'

بمجرد أن فهمت، تحدثت إلى إيا: 'لقد سمعت كلماتك يا سيدي، وسأطيع أمرك. لكن كيف يمكنني أن أفسر ما أفعل للناس في المدينة، للقوم والكبار؟'

فتح (إيا) فمه وقال لي، أنا عبده: 'ستخبرهم بهذا، بالطبع، أن الإله (إنليل) قد نبذك، لذلك لا يمكنك أن تظل في المدينة التي هي أرض (إنليل) بعد الآن. وهذا هو السبب في أنك ستغادر راحلا إلى مملكة المياه الخاضعة لسيدك (إيا) الذي سيصب عليهم وابلا من المطر، ثروة من الطير والسمك، محصولا من الثروات.'

عند التماع أول ضوء من أضواء الفجر تجمع العاملون حولي؛ النجار بفأسه، وعامل القصب بحجارته، الشباب والعجائز، وجمعنا المواد المطلوبة. قبل اليوم الخامس كنت قد وضعت هيكل المركب. كانت مساحتها فدانا، وارتفاع جدرانها عشر قصبات، وكان سقفها أيضا عشر قصبات في كل جانب. وبمجرد أن أصبحت المركب جاهزة، جعلتها من ستة طوابق، وقسمتها إلى سبعة. وضعت أوتاد الماء في المنتصف، واعتنيت بالمجاديف، واهتممت بكل المطلوب. ضحيت بأغنام كل يوم، وأعطيت العاملين المزر والجعة ليشربوهما، والزيت والنبيذ، وكأنها ماء من النهر. فأقاموا مأدبة مثل عيد العام الجديد. وأخيرا غدت المركب على أهبة الاستعداد، وحمَّلتها بكل ما كنت أملك، بكل الفضة والذهب، وكل بذور الأشياء الحية. وضعت على سطح الفلك أهلي وخلاّني، والماشية والوحوش، وكافة أنواع ذوي الصنائع.

نظرت إلى حال الطقس، كانت عاصفة مخيفة تتشكل. لقد حان الوقت الذي حدده إله الشمس. صعدت إلى سطح المركب وأغلقت الباب. مع أول ضوء للفجر لاحت سحابة سوداء على الأفق

وإله العواصف (آداد) يزأر داخلها. فوق الجبال والأرض جاء (شولات) و(هانيش) يمشيان كحاجبين للعاصفة. ونهضت الآلهة من الأعماق: اقتلع (نيرجال) أعمدة المراسي، ومضى (نينورتا) الإله المحارب قُدُمًا وجعل السدود تتدفق بالمياه. أضاء الأنوناكي (آلهة العالم السفلي) بمشاعلهم الأرض بومضات حارقة. وغطى سكون إله العواصف السماء، وانقلب كل النور إلى ظلام. واشتعل غضب العاصفة الثائرة كثور، محطمة في طريقها الأشياء إلى قطع صغيرة، حتى غطى الطوفان على الناس، مدمرا كمعركة.

لم يكن بمقدور أي إنسان أن يرى إخوته من البشر بسبب الظلام والمطر المنهمر. حتى الآلهة كانت خائفة من الطوفان. فلجأوا إلى سماء (آنو) الأعلى، منكمشين كالكلاب في الحقل المفتوح. وكانت (عشتار)، ملكة السماء ذات الصوت العذب، تولول كامرأة ساعة المخاض: «هل ارتدت الأيام الخوالي عائدة إلى الطين، لأني تحدثت بالشر في مجلس الآلهة؟ كيف أمكنني أن آمر بمعركة لتدمير ناسي؟ كنت أنا من ولدتهم، إنهم أبنائي. والآن ها هم يملؤون المحيط، مثل بيض السمك.» بوجوه مبتلة بالحزن كان الأنوناكي يبكون معها، وشفاههم جافة ومغطاة بالقشور.

طوال ستة أيام وسبع ليال استمرت العاصفة وهطول الأمطار، في الوقت الذي كان فيه الطوفان يُسوِّي الأرض. وعندما جاء اليوم السابع، خفت العاصفة وهطول المطر. انتهى الطوفان وأصبح المحيط هادئا. وساد الصمت. كان كل الناس قد ارتدُّوا إلى طين.

وكان السهل الفيضي مسطحا كسقف بيت. فتحت كوة وسقطت أشعة الشمس على وجنتيّ. انحنيت، وانسالت الدموع على وجهي. بحثت عن الضفاف، عن حافة المحيط. كانت مساحات من الأرض تلوح هنا وهناك. وأمسك جبل نيموش - حيث آوت المركب كي تستريح - بالمركب سريعا، دون حركة، لمدة ستة أيام.

في اليوم السابع أطلقت حمامة. ذهبت الحمامة وعادت: فهي لم تجد أي مكان كي تحط عليه. أطلقت عصفورا، ذهب العصفور وعاد: فهو لم يجد أي مكان يحط عليه. أطلقت غرابا. ذهب الغراب ورأى المياه تنحسر، وجد طعاما، فطار حوله ولم يرجع إليّ. عندئذ أطلقت كل شيء في اتجاه الرياح الأربعة، وذبحت أضحية. وضعت البخور على قمة الجبل، مرتبا القوارير سبعة وسبعة، وكومت القصب والصنوبر والريحان تحتها.

شمّت الآلهة العبير الساحر وتجمعت كالذباب فوق الأضحية. وبمجرد أن وصلت الإلهة الأم، رفعت خرزات اللازورد المتخذة شكل ذباب والتي كان (آنو) قد صنعها ليبهجها، وقالت: 'انظروا أيها الآلهة، مثلما لن أنسى أبدا الخرزات الرائعة في عقدي هذا المصنوع من اللازورد، سأتذكر دائما هذه الأيام ولن أنسى أبدا. دعوا الآلهة الأخرى تأتي إلى الأضحية، لكن لا ينبغي أن يأتي (إنليل)؛ لأنه لم يستشر أحدا وجلب الطوفان الذي جلب الدمار على ناسي.'

وبمجرد أن وصل (إنليل) ورأى المركب، استشاط غضبا ضد

الآلهة: 'من أين أفلت هذا الشخص الحي؟ لم يكن المقصود أن ينجو أي أحد من الدمار!'

فتح (نينورتا) فمه وتحدث إلى المحارب (إنليل): 'ومن غير (إيا) كان ليفعل مثل هذا الشيء؟ (إيا) هو الذي يعرف كيف يجب أن تتم الأمور.'

تحدَّث (إيا) إلى المحارب (إنليل): 'أنت يا حكيم الآلهة، أيها البطل، كيف أمكن أن تكون طائشا إلى هذا الحد حتى تجلب الطوفان؟ عاقب المخطئ على خطيئته، عاقب المجرم على جريمته. بدلا من أن تتسبب في الطوفان، كان يمكن لأسد أن يقلل من عدد الناس. بدلا من أن تتسبب في الطوفان، كان يمكن لذئب أن يقلل من عدد الناس. بدلا من أن تتسبب في الطوفان، كان يمكن لمجاعة أن تقتل الأرض. بدلا من أن تتسبب في الطوفان، كان يمكن لإله الطاعون أن يذبح الأرض. أنا لم أفشِ سر الآلهة العظام. أنا جعلت أوتنابيشتم، الرجل الحكيم، يرى حلما؛ وهكذا تمكن من أن يعرف السر. والآن، قرر ما ستفعله معه.'

أخذ (إنليل) بيدي وأخرجني أنا وزوجتي إلى ظهر السفينة. وجعلنا نركع، ولمس جبهتينا، واقفا بيننا، وباركنا: 'فيما مضى كان أوتنابيشتم رجلا فانيا، لكن من الآن فصاعدا سيكون هو وزوجته مثلنا نحن الآلهة. وسيسكن أوتنابيشتم بعيدا، في المكان الذي تنبع منه الأنهار.'

وهكذا يا جلجامش، جئت لأعيش هنا.»

2. نوح (العبرية)

رأى الرب كم كان شر الناس في الأرض وأن كل شيء فكروا فيه أو خططوا له كان شريرا. أسف الرب جدا لأنه صنعهم، وقال: «سأدمر كل مخلوق حي على وجه الأرض! سأمحو الناس والحيوانات والطيور والزواحف. أنا حزين لأني عملتهم.» لكن الرب كان سعيدا بنوح، وهذه هي قصته. كان نوح هو الشخص الوحيد الذي كان يعيش بالحق ويطيع الرب. وكان لديه ثلاثة أبناء: سام، وحام، ويافث. عرف الرب أن الجميع كانوا قساة وظالمين. لذلك أخبر نوحا: «لقد انتشر الظلم والفساد في كل مكان. والآن سأدمر الأرض بأكملها وكل ناسها. ائتِ بخشب جيد واصنع سفينة. اجعل فيها حجرات وغطها من الداخل والخارج بالقار. اجعل طولها أربعمائة وخمسين قدما، وعرضها خمسة وسبعين قدما، وارتفاعها خمسةً وأربعين قدما. اصنع سقفا للسفينة واترك فراغا قدره حوالي ثماني عشرة بوصة بين السقف والجوانب. اجعل السفينة ثلاثة طوابق ارتفاعا وضع بابًا على كل جانب. سأرسل طوفانا يدمر كل شيء يتنفس! لن يبقى شيء حي. ولكني أقيم عهدي معك أنك وزوجتك وأبناءك وزوجات

أبنائك ستبقون آمنين في السفينة. ائتِ إلى السفينة بذكر وأنثى من كل جنس من الحيوان والطير، وكذلك ذكر وأنثى من كل ما يدب على الأرض. أنا لا أريد أن أدمرهم. وخزِّن طعاما كافيا لك ولها.»

ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

وقال الرب لنوح: «ادخل أنت وجميع أهل بيتك إلى السفينة، لأنك الوحيد الذي يرضيني على هذه الأرض. خذ سبعة أزواج من جميع البهائم الطاهرة التي يمكن استخدامها في الأضحيات وزوجا واحدا من جميع الأخريات. وخذ معك أيضا سبعة أزواج من كل نوع من الطيور. افعل هذا حتى يبقى نسل منها دائما على وجه الأرض. بعد سبعة أيام من الآن سوف أرسل مطرا سيدوم أربعين يوما وليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته.»

كان نوح ابن ستمائة سنة عندما دخل إلى السفينة كي يهرب من الطوفان، وفعل كل شيء أمره الرب أن يفعله. ودخل معه بنوه وامرأته ونساء بنيه جميعهم. أطاع الرب وأخذ ذكرا وأنثى من كل نوع من الحيوان والطير داخل السفينة معه. وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض.

كان نوح ابن ستمائة سنة عندما انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم في كل مكان، وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة. بدأ كل هذا في اليوم السابع عشر

من الشهر الثاني لذاك العام. في ذلك اليوم دخل نوح وزوجته إلى السفينة مع بنيه الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم. وأخذوا معهم ذكرا وأنثى من كل نوع من الحيوان، البهائم والوحوش، وكل الطيور بأجناسها. أخذ نوح ذكرا وأنثى من كل مخلوق حي معه، تماما كما أمره الرب. وعندما دخلوا جميعا في الفُلك، أغلق الرب الباب.

لأربعين يوما انهمر المطر بلا توقف. وتكاثرت المياه ورفعت السفينة فارتفعت عن الأرض. وأخيرا تعاظم الطوفان جدا حتى أن قمم أعلى الجبال الشامخة كانت تحت سطح الماء بخمسة وعشرين قدما تقريبا. ولم يبق طائر ولا حيوان ولا زاحف ولا إنسان حيا في أي مكان على الأرض. دمر الرب كل ما في أنفه نسمة روح حياة. لم يبق شيء حيا إلا نوح والذين معه في الفُلك. وبعد مائة وخمسين يوما، بدأت المياه في الانحسار.

لم ينس الرب نوحا والحيوانات التي معه في الفُلك. فأجاز الرب ريحا على الأرض وهدأت المياه. وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، وامتنع المطر من السماء. ولمدة مائة وخمسين يوما تراجعت المياه ببطء. ثم استقر الفلك في اليوم السابع عشر من الشهر السابع من العام في مكان ما على جبال آرارط. وكانت المياه تنقص نقصا متواليا، وفي أول الشهر العاشر ظهرت رؤوس الجبال.

وحدث من بعد أربعين يوما أن نوحا فتح طاقة السفينة التي

كان قد عملها وأرسل الغراب، لكنه ظل يطير حائما حتى نشفت المياه عن الأرض. وأراد نوح أن يرى هل قلت المياه عن وجه الأرض، فأرسل حمامة. كان الماء العميق مازال على وجه كل الأرض، فلم تجد الحمامة مستقرا لرجلها. فرجعت إليه في الفلك. فمد نوح يده وأخذها وأدخلها عنده في الفلك.

بعد سبعة أيام عاد وأرسل الحمامة. فأتت إليه عند المساء، وإذا ورقة زيتون خضراء في منقارها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. ولبث أيضا سبعة أيام أخر قبل أن يرسل الحمامة من جديد، وهذه المرة لم تعد.

كان نوح عندئذ في السنة الواحدة والستمائة. وفي اليوم الأول من هذه السنة نشفت المياه كلها تقريبا. فصنع نوح فتحة في سقف السفينة ورأى أن وجه الأرض قد نشف. وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر الثاني، جفت الأرض تماما.

وكلم الرب نوحا قائلا: «اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك. واطلق الطيور والحيوانات والزواحف لتتوالد وتعيش في الأرض كلها.» وبعد أن خرج نوح وأهل بيته من الفلك، خرجت المخلوقات الحية في مجموعات كأنواعها.

وبنى نوح مذبحا ليقدم الأضحيات إلى الرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واحدا وأحرقه على المذبح.

فتنسَّم الرب رائحة الرضا، وقال: «لا أعود ألعن الأرض لأجل

الخطايا التي يقوم بها البشر؛ لأن جميعهم عندهم أفكار شرير منذ حداثتهم، ولا أعود أيضا أميت كل حي كما فعلت. طالما بقيت الأرض سيبقى زرعٌ وحصاد، وبردٌ وحرّ، وصيف وشتاء، ونهار وليل.»

وبارك الرب نوحا وبنيه وقال لهم: «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على حيوانات الأرض وطيور السماء وكل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر. لقد وضعتهم تحت سيطرتكم، وقد منحتها لتكون لكم طعاما. من الآن فصاعدا يمكنكم أن تأكلوها، وكذلك العشب الأخضر الذي طالما أكلتموه. غير أن لحما بحياته، دمه، لا تأكلوه. لقد خلقت الإنسان على صورتي، وسأعاقب أي حيوان أو إنسان يأخذ روح إنسان. إذا قتل حيوان إنسانا، لا بد أن يموت ذلك الحيوان. وإذا أخذ إنسان روح إنسان، لا بد أن يُقتل ذلك الشخص. سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه. أريدكم أنتم ونسلكم أن تتكاثروا وتتوالدوا حتى يعيش الناس في كل مكان على وجه الأرض.»

ومرة أخرى قال الرب لنوح وبنيه: «وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل الطيور والحيوانات التي خرجت من الفلك. أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضا بمياه الطوفان، ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض. وقوس قزح الذي وضعته في السماء سيكون علامتي لكم ولكل نفس حية على الأرض. سيذكركم أني سأحفظ ميثاقي هذا للأبد. عندما

أنشر سحابا على الأرض، وتظهر القوس في السماء، سأذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد. فلا تكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذي حياة. فمتى كان القوس في السحاب، أبصرها لأذكر ميثاقا أبديا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض. سيكون القوس علامة هذا الميثاق.»

(المصدر: نسخة الإنجليزية المعاصرة 1999 بإذن من جمعية الكتاب المقدس الأمريكية Biblija.net)[37]

37- قمت بترجمة هذه القصة معتمدا على النص الموجود في الكتاب ومستعينا بالكتاب المقدس طبعة دار الكتاب المقدس بمصر الإصدار السادس الطبعة الأولى -2008 المترجم)

آسيا

3. براهما والموت (الهندية، الهند)

ازداد الخلق عمرا وعددا ولم يموتوا. ازدحمت بهم الأرض حتى لم يعد هناك أي مكان باق، لم يعد هناك مكان حتى للتنفس. أصبح براهما (الملقب أيضا بالجد أو براجاباتي) قلقا بشدة: هل صار من الواجب عليه أن ينقذ الأرض بهلاك مخلوقاته هو نفسه؟ عادة ما يرتبط الدمار الدوري للكون بالإله شيـئًا (الملقب كذلك بالعمود)، لكن في هذا النص يأخذ شيـئًا جانب الخلق من الضحايا سيئي الحظ. من وجهة النظر الهندوسية لا يعادل الخلود الحياة الأبدية، بل يتعلق بالأحرى بحياة كاملة تتضمن جميع المراحل والتي يتم عيشها كاملة. الموت، الذي عادة ما يتم تخيله كذكر، يُقدَّم كشخصية أنثوية هنا.[38]

كيف السبيل إلى تحقيق هذا الدمار، كيف السبيل إلى إفنائهم؟ تفكّر (براهما) لوقت طويل لكنه لم يجد حلا لهذه المشكلة. جعله هذا غاضبا بشدة حتى أنه من كل فتحات جسده خرجت

38- Wendy Doniger 1975: 37.

نار، نار لافحة أحرقت السماء والأرض، والهواء، وكل شيء آخر. أمسكت النيران في الكون بأسره وفي جميع الخلائق، المتحركة أو الساكنة؛ بسبب لفحة غضب الإله المدمرة.

عندئذ أتى (شيـڤا) العمود بضفائره المتلبدة السمراء المصفرَّة ليزور (براهما)، الإله الذي يمنح البركات، والذي قال لشيـڤا: «ما الأمنية التي سوف أمنحها لك اليوم؟ أنت تستحق بركتي وأيا كان ما تختاره سأفعله.»

«أنت تعرف أني قلق بشأن خلق الأحياء. لقد خلقتهم، أنت يا رب الكون؛ أتوسل إليك، لا تكن غاضبا منهم.»

«لست غاضبا..» قال (براچاباتي). «ولا أرغب في أن يتوقفوا عن الوجود، أيها الإله العظيم. فقط أردت أن أساعد الإلهة (الأرض). إنها تغرق في الماء تحت عبء ما تنوء به من حمل ولا تتوقف عن حثّي على إهلاكهم. ولم أستطع التفكير في طريقة لإهلاك هذه الكائنات التي تستمر في التزايد، وقد أثار هذا سخطي.»

«فلتُظهر الرحمة..» قال العمود «يا إله الكون، لا تكن غاضبا. لا تهلك الخلائق، المتحركة والساكنة، الآلهة والبشر والحيوانات والجمادات. لقد استحال الكون إلى رماد وأغرقه الطوفان.[39] فلترحم، هذه هي النعمة التي قد اخترتها. إذا توقفوا عن الوجود الآن، ستذهب كل هذه الخلائق إلى الأبد، وستنقطع منهم أي ذرية.

39- Doniger 1975: 39: في نهاية كل دهر أو حقبة (كالبا) يُحرق الكون ويغرق.

لذا، من فضلك، ابحث عن وسيلة ما من أجلهم كي يعودوا. لقد أرضيتك، أيها الإله العظيم، وأتوسل إليك أن تُخضع جميع الخلق لتعاقُب الميلاد والموت.»

عندما سمع (براهما) كلمات العمود، سحب غضبه إلى داخله، لكن ما إن أخمد الإله النبيل النار التي سببها غضبه، حتى خرجت امرأة سوداء من فتحات جسده، متسربلة بثياب حمراء، ولها عينان حمراوتان وكفان حمراوان وباطنا قدمين حمراوان. وعندما ظهرت، ذهبت إلى يمين (براهما)، ونظر الإلهان إليها. وعندئذ قال لها رب الناس: «أيتها الموت، عندما بحثت في غضبي عن وسيلة هلاك أقتل بها هذه الخلائق، فكرت فيكِ. لذا، أهلكي كل الخلق، ضعاف العقول وأهل العلم. اذهبي وأهلكيهم، جميعهم، وتأكدي أن ذلك سيجلب لك فضلا عظيما.»

كانت الإلهة الشابة التي اسمها الموت ترتدي أقراطا مقدسة وأكاليل من اللوتس. وكانت قلقة للغاية وذرفت سيولا من الدموع، أمسكت بها في يديها وهي تصلي لخير البشر. أخفت حزنها العميق، وضمت كفيها وانحنت مثل كرمة. ثم قالت: «يا إلهي، كيف تأتّى لك أن تخلقني لأقوم بمهمة فظيعة كهذه؛ مهمة ترويع كل ذي نَفَس من الخلق؟ أنا خائفة من أن أخرق الدارما[40]. أرجوك اعطني مهمة لا تتعارض مع الدارما. يا إلهي، أرجوك، اشفق عليَّ،

40- Dharma: النظام والترتيب الخفي للكون والحياة الإنسانية والطبيعة في الأديان الهندية.

أنا خائفة جدا. كيف يمكنني أن أختطف الأطفال الأبرياء والرجال العجائز، والناس في أوج صحتهم، والخلائق المتنفسة، يا رب كل من يتنفس؟ يا إلهي، يا مانح النعم، أتوسل من أجل رحمتك، يا جَدٌ الجميع. النعمة التي أطلبها منك هي أن أمارس الزهد.»

«يا موت..» قال الجَدُّ «أنا صنعتك لتقضي على الخلق. اذهبي الآن دون تأخير وأهلكيهم. الأمر هكذا، محتوم. أنت، أيتها البريئة من الخطايا ذات الأطراف الكاملة، افعلي كما أمرتك.»

عند هذا الأمر، لزمت الموت الصمت. وقفت هناك، منحنية في ذلة رافعة ناظريها إلى رب كل المخلوقات. تكلم إليها مرة بعد مرة، لكنها لم تفه بكلمة، وكأنها قد سُلبت قواها القاتلة. لقد تعطف رب الأرباب ليرضى، ونظر من عليائه إلى البشر وهدأ غضبه. وغادرت الصبية، دون أن تعد بإهلاك الخلق.

أسرعت الموت إلى دينوكا، مكان الحج، وبدأت في ممارسة أعلى درجات الزهد: ظلت واقفة على قدم واحدة طوال خمسة عشر ألف مليون عام. وبينما كانت تمارس هذا الشكل الأصعب من الزهد، تحدث إليها (براهما) مرة أخرى وقال: «يا موت، لا بد أن تطيعي أمري.» لكنها تجاهلت كلماته ومرة أخرى مارست الزهد واقفة على قدم واحدة لمدة عشرين ألف مليون عام أخرى، تبعتها بعشرة ملايين مليون عام أخرى عاشت خلالها وسط الحيوانات البرية. ولمدة عشرين ألف عام كانت تأكل الهواء، فقط الهواء. وبعد ذلك، لمدة ثمانية آلاف عام أخرى وقفت في الماء

دون أن تنطق كلمة واحدة. ثم ذهبت إلى نهر كوسيكي حيث عاشت على الهواء والماء فقط. وذهبت إلى نهر الجانج، ثم إلى جبل ميرو. وهناك وقفت، وحدها تماما، بلا حراك؛ كما لو كانت قطعة من الخشب، لأنها كانت تتمنى الخير للجميع. وأخيرا، على إحدى قمم الهيمالايا وقفت على إصبع قدم كبير لمدة ألف مليون سنة أخرى، وهو المسعى الذي أرضى الجَدَّ.

قال لها خالق ومُهلك الناس أجمعين: «يا ابنتي، ما الذي يجري هنا؟ لا بد أن تقومي بما أمرتك أن تفعليه.»

لكن الموت أجابته: «يا إلهي، لا يمكنني أن أختطف الناس، أتوسل إليك مرة أخرى طالبة الرحمة.» توسلت لرب الأرباب مرة أخرى وهي مذعورة بالفعل من أن تخرق الدارما، لكنه وبخها قائلا: «أنت أيتها الموت الصالحة، لا بد أن تقللي عدد هذه الخلائق، ولن تخالفي في هذا الدارما. ستدخلك الدارما الأبدية. كلماتي، أيتها السيدة الطيبة، هي دائما كلمات حق، وستهتم الآلهة دائما بخيرك. وسأهبك الأمنية التي في قلبك: فالخلق الذين سيصيبهم المرض لن يلقوا اللوم عليك. بين الرجال ستتخذين هيئة رجل، وبين النساء ستتخذين هيئة امرأة، وبين الخصيان ستتخذين هيئة خصي.»

عند سماعها هذه الكلمات ضمت كفيها وقالت لرب الأرباب النبيل: «لا.»

عندئذ قال لها الرب: « يا موت، يجب أن تُهلكي البشر. لقد رأيت دموعك وهي تسقط، أمسكتي بها وأبقيتيها في يديك. هذه الدموع ستصبح أمراضا رهيبة يُبتلى بها البشر في وقت معلوم. لكنك ستظلين نزيهة ولن تخرقي الدارما، أيتها الصالحة الورعة، أعدك بهذا.»

وبالرغم من قلقها من أن تُعرف باسم الموت، إلا أنها كانت خائفة كذلك من أي لعنة حتى أنها خضعت لأمره. وبدأت تذهب بأنفاس المخلوقات ذات الأنفاس عندما يحين أجلهم. وأصبحت الدموع التي سقطت من عيني الموت أمراضا تهاجم وتؤذي أجساد الناس. هكذا خلق الرب الموت وهكذا صارت تختطف أرواح الخلق في الموعد المعلوم. ودموع عينيها هي الأمراض التي تبتلي الخلق عندما يحين وقت نهايتهم.

آسيا

4. من البدء إلى المنتهى (الأهومية، جنوب آسيا)

في البدء لم تكن هناك آلهة ولا بشر. كانت مياه المحيط تحتضن العدم. ولم يكن هناك هواء بعد، ولم تكن هناك حيوانات، ولا حكام، ولا بلاد، ولا كائنات حية بعد. ولم تكن الشمس موجودة، ولا القمر والنجوم. ولم تكن هناك أرض ولا سماء.

لم يكن هناك غير كائن واحد كلي القدرة، الإله العظيم الذي بقي معلقا في السماء مثل جماعة نحل في خلية. لم تكن لديه رأس، ولا فم ليتكلم، ولا ساقان ليمشي. كان أشبه بكتلة من اللحم معلقة في السماء. وتساءل الإله عمن سيرغب في حمد اسمه طالما ظل يبدو على تلك الشاكلة. فبدأ يفكر في تغيير شكله. اشتغل الخالق الأهومي على مظهره الشخصي وبدأ يبدو أكثر ألفة، أكثر شبها بالإنسان. وفي تلك الأثناء جلب النظام إلى الكون وجعل الأرض صالحة للسكنى.

مر زمن طويل قبل أن يفتح الإله عينيه فجأة وينظر حوله. لم يكن هناك شيء جذاب أو ساحر. من صدره خلق الإله معبودا: (خون ثيو خام)، الذي خر راكعا بكل تواضع أمامه وانتظر

أوامره بكفين مضمومتين. لم يجد هذا المعبود أي شيء يستند عليه أو يجلس فوقه. لم يكن هناك أي شيء بعد، لا شمس مشرقة ولا نهار مضيء.

بعد ذلك خلق الإله الأرض، وسلحفاة لتسند الأرض، وثعبانا كبيرا طوّق السلحفاة. كان لهذا الثعبان ثمان قلنسوات فردها في ثمانية اتجاهات. بعد ذلك خلق الإله إلهة لتكون زوجته، جامعها ووضعت الإلهة أربع بيضات. عندما فقست البيضات، خرج منها أربعة أبناء.

أعطى الإله تعليمات ضرورية للكائنات. قال لابنه الأكبر: «أعطي لك ملك الأرض.» ولابنه الثاني قال: «أجعلك زعيما على مائة ألف أفعى تعيش في الماء.» ثم قال الإله لابنه الثالث: «أعيُنك مسؤولا عن ثمانية مليون قصفة رعد.» وقال الإله لابنه الأصغر: «ستبقى معي لتساعدني في خلق العالم في حالة تدميره.» وإذ انتهى الإله من إعطاء تعليماته لأبنائه، ارتفع صاعدا.

مر الزمن وعندما نظر القدير من فوق عرشه الذهبي في أعلى سماء رأى أن الأمور سارت بشكل خاطئ في العالم. لم يعد أحد من أحفاده يحكم على الأرض وصارت البلاد في فوضى تامة.

ارتفعت الحرارة المنبعثة من الشمس بشدة حتى أن كل الماء الذي على الأرض جف وتبخّر متسببا في موت أعداد كبيرة.

صارت الأرض يابسة ومتشققة، وفي النهاية صعدت كتل من الماء المغلي من تحت السطح الجاف، لتقتل كل حي باقٍ ما عدا رجلا عجوزا كان اسمه (ثاو ليب لينج)، وبقرة. أنقذا نفسيهما في مركب حجري طفا على الماء المغلي. حمل الطوفان ذلك المركب إلى الشمال الشرقي، إلى جبل إيبا. وبعثت الآلهة نارا لتزيل نتن الجثث المتعفنة. فأنقذ (ثاو ليب) نفسه بقتل البقرة والاختباء داخلها. في جسد البقرة وجد بذرة يقطين. فيما بعد قام بزراعة هذه البذرة، وانبثق عنها نبات ضخم له غصون في الاتجاهات الأربعة. مات الغصن الشمالي من البرد، ومات الجنوبي من الحرارة، وغرق الفرع الغربي. فقط الغصن الشرقي هو الذي نما وتحول إلى يقطينة عملاقة تضم كل أنواع الحياة. فأرسل وميض برق من السماء ليفتح اليقطينة، لكن المخلوقات التي داخلها تضرعت كي تبقى على قيد الحياة. وفي النهاية عرض (ثاو ليب لينج) أن يضحي بنفسه. كان يجلس عند النقطة التي ماتت فيها الزهرة الخارجة من اليقطينة، وسمح للبرق أن يضربه ويقتله، وعندئذ فقط أمكن للحياة أن تهرب من اليقطينة المفتوحة. أما البشر الذين خرجوا فقد انقسموا إلى شعوب مختلفة مازالت تعبد (ثاو ليب لينج) الذي ضحى بحياته من أجل الجميع.

آسيا

5. فوضى أول الزمان والمعركة بين الماء والنار

(الهان، الصين)

في الصين هناك تنويعات كثيرة على ثيمة الطوفان في الثقافات العديدة التي عاشت داخل حدود البلاد، قصص عن الخلق والهلاك. في الأساطير غالبا ما يتم تقديم (بان كو)، الكائن الأول، باعتباره الكائن الذي تُخلق من جسده المتحلل أجساد كل الأشياء، وتأتي الإلهة (ناوا) باعتبارها الإلهة التي تخلق البشر من الطين. وفي إحدى الأساطير، يدمر (جونجونج) إله الماء كمال الخلق.

هيَّأ جسد (بان كو) الساحة. تحولت عينه اليسرى إلى الشمس وعينه اليمنى إلى القمر، وأصبح جسده وذراعاه وساقاه سلاسل الجبال والوديان. كوَّن دمه الأنهار وغاصت عضلاته في الأرض وصارت تربة خصبة. تحوَّل شعره إلى أحجار كريمة، وعظامه إلى معادن. وبفضل جسد (بان كو) تغيرت الفوضى الأولى وتحولت إلى موطن مثالي. ومن الأرض، التي كانت جسده سابقا، خرجت الآلهة الأولى. كانت (ناوا) هي الأولى، وكان لديها

رأس امرأة وجسد ثعبان، لكنها كانت قادرة على تغيير شكلها سبعين مرة في اليوم. من الطين الأصفر شكلت (ناوا) الناس الذين وضعتهم على الأرض. علّمت الناس كيف يحبون بعضهم البعض وكيف يتناسلون. أصبحت (ناوا) هي إلهة الزواج. وبعد (بان كو) و(ناوا)، ظهرت آلهة أخرى على الأرض، مثل إله النار: (زهورونج)، وإله الماء (جونجونج).

لوقت طويل ساد السلام على تلك الأرض الأولى حتى قرر (جونجونج) إله الماء أن يخوض الحرب ضد (زهورونج) إله النار. كان لجونجونج جسد ثعبان برأس بشريٍ وشعر قرمزي زاهٍ. وكان مستشاراه المقربان لا يقلان عنه هولاً. أحدهما كان (زيانج ليو) الذي كان قويا بقدر ما كان شريرا؛ ومن جسده الأخضر المحرشف كانت تتمايل تسع رؤوس بعيون سوداء مراوغة. وكان مستشاره الآخر هو (فو يو). ونحن لا نعرف ما كان يبدو عليه، لكن ما نعرفه هو أنه تحول إلى دب أحمر رهيب عندما مات.

والآن فقد اشتهر (جونجونج) بمزاجه السيء وقسوته، لكن من يعلم كيف بدأت المعركة المدمرة مع (زهورونج)؟ ببساطة يفسر الناس الكارثة بقولهم أن إله الماء أراد أن يسيطر على إله النار.

كان (جونجونج) هو من قاد الهجوم على (زهورونج) من عربة رائعة يجرها تنينان مفعمان بالنشاط. وخلفه مباشرة كان مستشاراه (فو يو) و(زيانج ليو) ووراءهما حوريات البحر

والمخلوقات التي تعيش تحت الماء. بدت هذه الكتائب مخيفة، لكنها لم تستطع تحمل الحرارة الرهيبة عندما اقتربت أكثر وأكثر من إله النار. وسرعان ما بدأت تذوب وتحترق، وفي النهاية تفرقت في اتجاهات مختلفة. وهكذا حدث أن إله الماء، الذي صعد من الأعماق المخيفة المظلمة، انهزم في النهاية على يد إله النار الراقص المتلألئ.

لا تمضي الحروب والمعارك أبدا دون خسارة، مهما قد يبدو النصر مجيدا. كان مستشار (جونجونج) الشرير (فو يو) قد قفز مشتعلا في نهر هوايشوي ولم يره أحد مرة أخرى أبدا. وابن (جونجونج) الأكبر مات محترقا كذلك في ذروة المعركة، وأصبح شبحا يجوب الأرض ويطارد الناس. أما (زيانج ليو) الوحش ذو التسع رؤوس فقد فر مذعورا واختبأ في جبل كونلون. وربما مازال هناك، يمنعه الشعور بالخزي من أن يُظهر وجهه مرة أخرى أبدا.

لكن سلوك (جونجونج) غير المحكوم هو الذي تسبب في أكبر الكوارث. فعندما رأى قواته تتفرق أمام ألسنة اللهب الشرسة، تبخرت آماله في السيطرة. وفي نوبة غضب جرى نحو جبل بوزهو، العمود الذي كان يحمل السماء منذ قديم الزمان. وبكل قوته ضرب (جونجونج) رأسه في الجبل، حتى أن العمود تصدع وتحطم إلى قطع صغيرة، حافرا شقوقا عميقة في الأرض.

للحظة صامتة حبس الزمان أنفاسه وتوقف. ثم تداعت السماء وسقطت محطمة، مسببة الفوضى في كل مكان، وتاركة حفرا

واسعة في القبة العلوية. بدأ العالم يرتج ويتقلقل، وأمسكت النار في الغابات والجبال، صرخت الطيور والوحوش الجارحة وفرت في ذعر، وهي تهاجم الناس وتلتهمها. فاضت الأنهار وانفجرت السيول من شقوق الأرض، وأغرقت السهول بماء قذر. وغدت الأرض بحرا بلا شطآن. لم يعرف الناس إلى أين يفرون. مهددين بأمواج المد والوحوش المفترسة، عاشوا في مواجهة دائمة مع الموت.

وما الذي حدث لجونجونج؟ جعلته الضربة يغشى عليه وعندما عاد إلى الوعي مرة أخرى ابتعد متعثرا، ولن يظهر مرة أخرى حتى الطوفان القادم.

نظرت (ناوا) من علٍ إلى أطفالها وشعرت بالحزن. وقررت أن تُصلح السماء بيديها. جمعت أحجارا ذات ألوان مختلفة من جميع الأنهار وصقلتها لتصلح السماء المدمرة. وعندما مزجت الملاط، بدأت الإلهة تملأ الحفر الواسعة في السماء، ضاغطة الجص ومسوية إياه في داخل الشقوق. ثم قطعت أقدام سلحفاة عملاقة كأعمدة لترفع السماء. وهكذا حولت السماء إلى قبة هائلة تظلل الناس جميعا ولم تسقط مرة أخرى أبدا.

أحرقت (ناوا) كذلك أعشاب السهول واستخدمت الرماد لتوقف الطوفان. بفضل جهودها النشيطة ساعدت (ناوا) أطفالها وخلصت العالم من الحرب الكارثية بين النار والماء.

لكن بالرغم من إصلاحه، لم يعد العالم هو نفسه مرة أخرى أبدا.

أوروبا

6. ديوكاليون وبيرا (يونانية، لاتينية)

في هيئة بشرية كان زيوس كبير الآلهة الإغريق (جوبيتر كما أسماه الرومان) قد غادر قمم جبل الأوليمب وقام بزيارة الأرض. وشعر بصدمة عميقة حيال سوء سلوك الجنس البشري وافتقاره لكرم الضيافة. وفي مجلس الآلهة وجد دعما لقراره بإهلاك الجنس البشري. وافقت الآلهة، لكنها كانت تشعر كذلك بالأسى نحو النهاية الوشيكة للبشرية، وتساءلت كيف سيكون شكل الأرض دون البشر.

أطلق جوبيتر العنان لريح الجنوب. بأجنحة مخضلة بالماء، ولحية مثقلة بالمطر، وملامح يكتنفها الضباب، بينما الماء يتدفق من خصلات شعره وثيابه وأجنحته، عصر الغيوم في يديه وانسكب المطر من السماء. أما إيريس (إلهة قوس قزح) بثيابها الملونة بألوان قوس قزح فقد أمدت السحب العطشى بمزيد من الغذاء. وساعد نبتون إله البحر أخاه جوبيتر بإعارته أمواجه، وأمر الأنهار بأن تندفع هابطة في سيول جارفة. وضرب الأرض برمحه ذي الشُعَب الثلاث حتى أنها ارتجفت وفتحت قنوات الماء من أعماقها. فاضت الأنهار عن ضفافها، دائرة في

دوامات تُغرق المحاصيل والبساتين، وتكتسح الماشية والناس، والبيوت والمعابد، والصور المقدسة. وإذا نجت بعض الأبنية من هذه الكارثة، سرعان ما كانت تبتلعها الأمواج المرتفعة عاليا. غدت الأرض كلها بحرا الآن، بحر بلا شطآن. وابتلعت المياه كل البشر. وخلت الأرض بأكملها إلا من شخصين عجوزين صالحين ومستقيمين: ديوكاليون وبيرا. وكانا قد نجيّا بأعجوبة من نهاية العالم السابق بفضل بروميثيوس والد ديوكاليون الذي كان قد بنى سفينة لهما وحذرهما كي يكونا مستعدين. طفت بهما السفينة فوق المياه العالية وعلقت بهما على جبل بارناسوس المرتفع ذي القمتين الشامختين أعلى من السحاب. كان أول ما فعلاه هو أن أديا الصلاة إلى معبودات الجبل المحلية وركعا أمام ثيتيس، الإلهة العرافة.

ورأى زيوس أن الأرض بأكملها قد تغطت بالمياه، وأن رجلا واحدا فقط وامرأة واحدة فقط قد بقيا من آلاف مؤلفة - شخصان غير مذنبين وعابدان للآلهة. بمساعدة ريح الشمال بدد سحب العاصفة ونادى تريتون إله البحر الذي صعد من الأعماق وكتفاه يتلألآن بالمحار. وبناء على طلب نبتون استدعى الأمواج والأنهار بالنفخ في محارته وهدّأ البحر بفضل أصداء إشارته التي سمعتها كل المياه التي كانت تغطي الأرض والبحر. غدا للبحر شطآن من جديد، وغاضت مياه الفيضانات، وبرزت التلال من أسفل المياه، وظهرت قمم الأشجار وقد التصق الطين بأوراقها.

ها هو العالم من جديد، لكن ديوكاليون نظر حوله؛ لم يكن هناك غير خواء الأراضي القفار متمددة هناك في صمت تام. ملأت الدموع عينيه، وقال لبيرا: «نحن الشخصان الوحيدان الباقيان على الأرض. لقد أخذ البحر كل الآخرين. ومازالت السحب تخيفني. كيف سنبقى على قيد الحياة؟ أتمنى لو كان بمقدوري أن أشكل ناسًا جديدة من التراب وأنفخ فيهم أنفاس الحياة، مستخدما مهارات أبي بروميثيوس. لقد تُركنا ها هنا كنماذج وحيدة من النوع البشري.» كانت تلك هي كلماته، وكان هو وبيرا يبكيان.

كيف أمكن لهذين الشخصين العجوزين أن يفعلا ما كان عليهما أن يفعلاه: أن يبدأا من جديد ويعيدا إعمار الأرض؟ بحزن يائس وقلق على مستقبل الجنس البشري صليا وقررا أن يستشيرا العرافة المقدسة، لكن الإجابة كات غامضة. كان عليهما أن يغطيا رأسيهما، ويرخيا نطاقي ثيابهما ويرميا عظام أميّهما وراءهما. عظام أميّهما؟ جعلتهما الإجابة عاجزين عن الكلام. كانت أمّاهما كلتاهما ميتتين! شعرت بيرا بالرعب. ألن تؤذي شبح أمها بإقلاق عظامها؟ ما العمل؟

أخيرا فسرا رسالة العرافة بأنها تشير إلى عظام الأم الأرض، أي الصخور الرابضة على ضفة النهر. برأسين مُقنَّعتين انحنيا والتقطا قطع الصخور التي رمياها من فوق أكتافهما. ومن كان ليصدق ما حدث بعد ذلك، لو لم يكن التراث القديم شاهدا؟ فقدت

الحجارة صلابتها وصارت لينة بالتدريج. وبعدما صارت لينة، زاد حجمها واتخذت شكلا بشريا من نوع ما. بدت أشبه بتماثيل رخامية غير مكتملة. وتدريجيا أصبحت الأجزاء الترابية الرطبة هي الجسد، بينما صارت الأجزاء الصلبة وغير المرنة هي العظام. واحتفظت عروق الصخر بنفس الاسم: العروق. وبعد بعض الوقت تحولت الحجارة التي ألقاها ديوكاليون إلى رجال، والحجارة التي ألقتها بيرا إلى نساء. وبفضل الحجارة التي يعود أصلنا إليها منذ زمن بعيد، صرنا جنسا صلبا، معتادين على الكدح من أجل خبز يومنا.[41]

41- كان ديوكاليون هو ابن بروميثيوس. الذي يعني اسمه «التفكير المسبق أو النظر في العواقب» وهو الأب الذي أثبت أن اسمه على مسمى بتحذيره ديوكاليون وبيرا وإخبارهما كيف ينقذا حياتيهما من الطوفان.

See for an English translation of Ovidius's Latin Edition (e.g. Oxford at the Clarendon Press 2004): The Metamorphoses of Ovid. (for example the translation by Mary M. Innes) London: Penguin Books (1955) 1986: 38-40.

أوروبا

7. برامزيماس (الليتوانية، ليتوانيا)

عندما نظر برامزيماس، الإله الأعلى، من نافذة مستقره السماوي، لم ير إلا الحرب والظلم بين الناس. فأرسل عملاقين هبطا إلى الأرض الآثمة: (واندو) و(ويجاس)؛ الريح والماء. وطوال عشرين يوما قاما بتدمير كل ما كان موجودا.

ومرة أخرى نظر برامزيماس من عليائه، بينما كان يأكل الجوز. وأسقط قشرة جوز واحدة. هبطت على قمة أعلى جبل. كانت الحيوانات والناس قد بحثوا عن السلامة مجتمعين على هذه القمة خلال عاصفة الطوفان المتصاعد. دخلوا معا في قشرة الجوز وسرعان ما طفت بهم فوق الماء الذي ملأ الأرض بأسرها.

وعندما نظر برامزيماس مرة ثالثة من عليائه إلى العالم، هدّأ العاصفة وجعل الفيضانات تغور. وذهب الناس الذين نجوا أزواجا في اتجاهات مختلفة. وبقي زوجان حيثما كانوا، هما جدا الليتوانيين. لكن هذين الاثنين كانا بالفعل عجوزين، وجعلهما هذا يشعران بالحزن. وكي يواسيهما أرسل إليهما الرب قوس قزح الذي نصحهما بأن يقفزا فوق عظام الأرض. قفزا تسع مرات،

وبتلك الطريقة ظهر تسعة أزواج من الأرض. صاروا هم أسلاف القبائل الليتوانية التسع.

أفريقيا

8. نزامي، وامبيري، ونكوَا (الفانج، الجابون)

في البدء لم يكن هناك أي شيء، لا شيء على الإطلاق، لا إنسان ولا وحش، لا نبات ولا سماء ولا أرض، لا شيء غير الرب وحده. كان الرب واحدا وكان ثلاثة. كيف يمكن شرح هذا؟ لا أعرف، فقد كان أبي هو من أخبرني بهذا وهو بدوره سمعها في مكان ما. ونحن ندعو هذا الرب (نزامي مام)[42] والثلاثة الذين يجعلون نزامي واحدا ندعوهم: (نزامي)، و(امبيري)، و(نكوَا).

في البدء خلق (نزامي) الأرض والسماء، واحتفظ بالسماء لنفسه. ونفخ على الأرض ومن نَفَسه وُلد اليابس والماء. خلق (نزامي) كل شيء: السماء، والشمس، والقمر، والنجوم، والحيوانات، والنباتات، وكل شيء. لكن (نزامي) أراد أن يفعل شيئا أفضل من ذلك وخلق ثلاثتهم كائنا على شاكلتهم. منحه أحدهم القوة، والآخر القدرة، والثالث الجمال. ثم قالوا له: «خذ الأرض، من الآن أنت سيد كل شيء حي. ومثلنا ستعيش إلى الأبد.» وعاد (نزامي) و(امبيري) و(نكوَا) إلى مسكنهم في السماء وبقي

42- نزامي مام: هو الذي خلق أو باشتقاقها من شكل آخر: غير المرئي.

المخلوق الجديد وحده في الأسفل. كان اسمه (فام) الذي يعني «القوة». كان فام فخورا بقوته، وقدرته، وجماله، وقد تجاوز الفيل في الحكمة، والفهد في القوة، والقرد في الخبث. ولأنه كان متفوقا على الجميع، فإن فام، هذا المخلوق البشري الأول، أصبح شريرا ومغرورا. ورفض أن يعبد (نزامي) بل واحتقره.

بيبي، أُوه لا، بيبي
(نزامي) هناك في الأعالي
والإنسانِ على الأرض..
بيبي، أُوه لا، بيبي
(نزامي) هو (نزامي)
والإنسان هو الإنسان،
كلٌ في بيته
كلٌ من أجل نفسه.

وقد سمع (نزامي) هذه الأغنية. «من الذي يغني؟»

«خمّن فقط.»
«من يغنِي؟»
«بيبي، أُوه لا، بيبي...»
«من يغني؟»
«حسنا، إنه أنا..» صاح (فام).

أثار هذا غضب (نزامي). فنادى (نزالانج)، الرعد، الذي وصل وهو يهدر ويدوّي. وأشعلت نار السماء الغابة. فُووِي، فُووِي، فُووِي، ارتفعت ألسنة اللهب ممسكة بكل شيء. احترقت الأشجار والنباتات والموز والكاسافا، وحتى اللوز الأخضر، كلها تحولت إلى رماد. وماتت كل الحيوانات والطيور والأسماك. لقد هلك كل شيء.

للأسف كان (نزامي) قد منح (فام) الحياة الأبدية. وكل ما يمنحه الرب، لا يسترده. احترق المخلوق البشري الأول لكنه مازال حيا. أين؟ لا أعرف، بالرغم من.. حسنا، انتظر قليلا...

كانت الأرض قفرا وخالية. ما الذي سيحدث؟ تداول (نزامي) و(امبيري) و(نكوَا) وهذا هو ما فعلاه: وضعوا طبقة جديدة من الأديم على الأرض السوداء المتفحمة. نبتت شجرة، نَمَت ونَمَت، وسقطت إحدى بذورها، وهكذا وُلدت شجرة أخرى. وعندما سقطت ورقة من الشجرة، نَمَت ونَمَت، وبدأت تمشي، وأصبحت حيوانا، فيلا، فهدا، ظبيا، سلحفاة، كل الأنواع. وعندما سقطت ورقة على الماء، بدأت تسبح. سبحت وسبحت، وصارت سمكة، سردينة أو سمكة بوري، كابوريا، محارا، بلح البحر، كل الأنواع.

ولم ييأس (نزامي) تماما من البشرية. بمزيد من الحزن والحكمة صنع مرة أخرى مخلوقا على صورته، لكنه كان قد تعلم درسًا. فهذه المرة خلق الإنسان أقل قوة مما كان عليه (فام) الخالد. كان للمخلوق الجديد نفس الشكل الإلهي، لكن بلا خلود.

كان هذا الإنسان، يا أصدقاء، مثلي ومثلكم.[43]

هكذا صارت الأرض مرة أخرى كما كانت عليه، وكما هي عليه الآن. كلماتي صادقة بالتأكيد. والدليل أنكم إذا حفرتم الأرض، أو حتى على السطح، ستجدون صخرا أسود صلبا ينكسر بسهولة. ولو رميتم هذا النوع من الصخر في النار، سيحترق. هذه الصخور هي البقايا المتفحمة من الغابات القديمة، الغابات التي احترقت تماما في العصور القديمة، بعد قليل من البداية الأولى.

43- Trilles 1905 : 130-136.

أفريقيا

9. البدء والفناء (تشاجا، تنزانيا)

في البدء حرر (رُووَا) أسلافنا الأوائل بإطلاقهم من محبس الولادة. ومنحهم مزرعة موز وحديقة مليئة بالبطاطا الحلوة. وفي منتصف تلك الحديقة زرع رُووَا بطاطا (أُولا Ula)، وأخبر كبير القرية أن بمقدور الناس أن يأكلوا كل الموز وجميع البطاطا ما عدا البطاطا المسماة (أُولا). «ليس مسموحا لأي أحد بأن يأكلها. وإذا فعلتم هذا، سأكسر عظامكم وستموتون.» بهذه الكلمات رحل رُووَا، لكنه كان يعود كل صباح ومساء ليحيي الشخص الأكبر والناس الآخرين.

وذات يوم وصل غريب. حيا الكبير وطلب طعاما، وقيل له أنه حر في أن يأكل أيا ما شاء، ما عدا بطاطا الأُولا، بسبب تحريم رُووَا. لكن الغريب قال: «مبكرا هذا الصباح أمرني رُووَا أن أجيء وأخبركم أن تعطوني آنية طهي لأطهو هذه الأُولا، وأن آكلها معك ومع ناسك لتستمتعوا بها.»

صدقه الكبير ومنحه آنية الطهي. وهكذا اقتلع الغريب الأُولا ووضعها في الآنية. طبخوا الوجبة وأكلوا. وعندما شم وزير رُووَا

رائحة الأُولا، جاء مهرولا وسأل: «ماذا تفعلون؟ ماذا تأكلون؟»

عندئذ شعر الكبير والغريب بالخوف. أخذ وزير رُووَا الآنية بما فيها من بطاطا الأُولا وحملها إلى رُووَا. غاضبا أرسل وزيره مرة ثانية. فذهب وتحدث مع الكبير والناس الآخرين: «خدعكم الغريب وأكلتم الأُولا خاصتي. لذلك سأكسر عظامكم وأفقأ عيونكم، وستموتون.»

بمجرد أن غادر، يحكي شعب التشاجا، بدأ الناس وكبيرهم في كسر عظامهم، ومرضت عيونهم وبدأوا يموتون. لذلك صلى الكبير طلبا للرحمة، وأرسل رُووَا وزيره مرة أخرى إلى الكبير: «سأرحمك. ستشيخ، وعندما توشك على الموت، ستبدل جلدك كما يفعل الثعبان، وستكون شابا من جديد. لكن إذا رآك أحد وأنت تبدل جلدك، ستموت ولن تعيش مرة أخرى.»

وهكذا استمر الناس في العيش، وشاخ الكبير، شاخ كثيرا حتى إن إحدى حفيداته صارت تعتني به. وعرف الرجل العجوز أنه قد حان يوم تبديل جلده. ولكي يتخلص من الحفيدة ثقب يقطينة ثقوبا صغيرة كثيرة في قاعها، ثم أمر الفتاة بأن تذهب وتُحضر الماء. وكان يعرف أنها ستستغرق وقتا طويلا. ومع ذلك، لاحظت الفتاة، وسدت الثقوب، وملأت اليقطينة، وأسرعت عائدة إلى جدها. وهناك وجدته، ونصف جلده مسلوخ.

حدَّق العجوز فيها وبكى بصوت عال: «يا ويلي، يا ويلي!

هذا هو موتي، وجميعكم ستموتون. فليكن.» وببطء لف العجوز نفسه في جلده من جديد، ومات. وهكذا دفنوه.

مر الزمن وأصبح الناس مغرورين متكبرين. أثار هذا غضب رُووَا بشدة، وأرسل وزيره مرة أخرى، ليأمرهم بأن يكفوا عن عاداتهم السيئة، لكن لم يستمع إليه أحد، وزاد سلوكهم سوءا. وكانت هناك فتاة مغرورة بشكل مفرط. رفضت كل شباب البلد، وقالت: «سأبحث عن زوج لديه قوة تفوق كل الرجال، وهو من سيتزوجني.»

سارت الفتاة في طول البلاد وعرضها بحثا عن زوج حتى وصلت إلى الغابة، حيث تتسع الأنهار وتغدو بحيرات. وهناك وجدت رجلا كان يعيش في بحيرة. كان ضخما لكنها لم تر إلا رأسه. توجه إليها مخاطبا وسألها: «عما تبحثين؟»

«أبحث عن زوج، واحد يتودد إليَّ ويتزوجني، واحد تفوق قوته كل الآخرين.»

قال لها الرجل العائش في البحيرة: «إنه أنا. أنا أقوى من كل الآخرين، وهذا هو ما سترينه، أنت وأبوك وكل الآخرين.»

تأثرت بشدة، واتفق الاثنان. عادت الفتاة إلى بيتها وأخبرت أمها أنها وجدته. قالت الأم: «هذا رائع، أحضريه إلى البيت، نريد أن نراه، خطيبك، رجل عمرك.»

الآن رأت الفتاة أن من واجبها أن تُحضر الطعام لخطيبها. ولدهشتها ابتلع الطعام وآنية الطهي سويا. ترى أي نوع من الرجال كان؟ لكنها لم تقل له إلا: «والداي يريدان أن يرياك، ويسمحان لك بالزواج مني. لذلك من فضلك تعال معي.»

فرد عليها الخاطب العائش في البحيرة: «لم يأت أوان قيامي من الماء بعد. بمجرد أن يجيء الأوان سأفعل كما ترغبين.»

عادت الفتاة إلى بيتها وكررت كلماته لأمها. وفي نفس الوقت استمرت في صنع الطعام لخاطبها الذي كانت رأسه هي الجزء الوحيد المرئي من جسده. وفي كل مرة كان يبتلع الطعام ومعه الأوعية والآنية التي كان يُقدَّم له فيها الطعام. لم تعلق على هذا، فقط كانت تقول له: «هيا، دعنا نذهب إلى بيتي.»

وذات يوم رد الرجل العائش في البحيرة على طلبها بأغنية:

أنا زورق الساحل.
سأذهب إلى هناك وأبتلع أباكِ.
سأذهب إلى هناك وأبتلع أمك.
سأذهب إلى هناك وأبتلع أخاكِ.
أنا زورق الساحل.

نهض الخاطب من البحيرة وهو يغني هذا وتبع الفتاة. كان هذا المخلوق هائلا بالفعل. ملأ جسده البلد كلها. والفتاة لم تكن

تعرف حتى اسمه، إلى أن قال لها: «اسمي ريمو. أُرسلت إليكم لأدمر كل الأشياء وكل الخلق. لقد أمرني رُووَا بأن أُهلك جميع البشر والحيوانات، لأن الناس قد هجروا التقاليد القديمة، وتبنوا طرق الشر. إنهم يظلمون الفقير وقد صاروا كسالى ومغرورين. لذلك سأبتلعك أنت أولا وأبتلع بيت والدك، وبعد ذلك كل الرجال الآخرين على الأرض، وكل الحيوانات.»

كلماته جعلت الفتاة ترتجف خوفا بينما كانت تسير في اتجاه بيتها، وريمو يسير خلفها تماما. كانت خطواته تهز الأرض، ومن بعيد سمع والدا الفتاة الضوضاء المتزايدة لرعد مدوٍ. كانا يستمتعان بوقتهما مع أهل القرية الآخرين. كان يوم عيد للجميع، وكان الناس يرقصون. بمجرد وصولهما، ابتلع ريمو الفتاة مع عائلتها، ثم انكب على الراقصين وابتلعهم جميعا على الفور. لم يبق أحد في القرية حيا، ماعدا امرأة كانت قد قامت بالولادة ذاك اليوم. عندما رأت هذا المخلوق الضخم، اختبأت في اصطبل، هي وابنتها الطفلة، ووليدها الجديد.

مر ريمو على الأرض بأكملها وابتلع البشرية كلها. وكان بعض الناس قد فروا إلى الغابة ليختبئوا والتهمتهم الفهود والأسود. وتسلق آخرون الشجر، لكن رُووَا دعا رياحا عاتية كي تكسر الشجر وتقذفهم إلى أسفل. وهكذا فإن كل أولئك الذين اختبأوا ماتوا كذلك. في سبعة أيام محا رُووَا الجنس البشري، ولم يبق أحد إلا المرأة المسكينة وطفلاها. ابتلع ريمو أيضا كل الماشية والماعز

والخراف والكلاب التي كانت تخص البشر. لكن في الكوخ الذي اختبأت فيه المرأة، بقي ثور وبقرتان، وجدي وماعزتان، ونعجة وكبش، وجروان صغيران؛ أنثى وذكر. كانت هذه الحيوانات ملكا لعائلة ثرية. كان رُووَا قد حماها هي وأطفالها وهذه الحيوانات القليلة، لأنها كانت مسكينة جدا.

في اليوم الثامن جاء وزير رُووَا وقال لها: «اخرجي واحكمي الأرض، أنت وطفلك، لأن أحدا لن يظلم الفقراء بعد الآن. ستسمين ابنك مكيشُووَا. سيصبح رجلا عظيما ويجعل الأرض صالحة من جديد. وسيُنزل رُووَا رحمته على الأرض من جديد.»

خرجت المرأة. وأينما نظرت لم يكن هناك شيء يتحرك؛ وأيا كان من تدعوه، لم يكن يجيبها إلا الصمت القاتل. كان عليهم أن يبدأو الحياة كلها من جديد. تزوج مكيشُووَا أخته، لأنه لم تكن هناك أي امرأة أخرى متاحة. أنجبا أطفالا وعلَّمهم مكيشُووَا كيف يتصرفون في الحياة. وبعد أن مات، أنجب أطفاله أطفالا، كانوا جميعهم أغنياء وعاشوا حياة طيبة. وحيث أنه كان هناك ناس وحيوانات أقل مما كانت موجودة من قبل، فقد وجدت الماشية وفرة من العشب. لكن بعد ذلك، أصبح الناس متغطرسين مرة أخرى، وتفاخروا بأملاكهم وطعامهم. سخروا من الفقراء ورفضوا أن يتشاركوا معهم. أغضب هذا رُووَا وصدمه فقرر أن يضع الأثرياء في التجربة. أرسل وزيره إلى الأرض في هيئة رجل مغطى بالدمامل.

ذهب الوزير إلى الأرض وطاف فيها، وهو يحك جسده النحيل والمتألم، ويتسول الطعام والدهان كي يهدئ الدمامل المؤلمة. لكن الأثرياء طردوه وأبعدوه بالحجارة، وأسموه كينجوساي «أي الرجل الذي يحك جسده». وأخيرا وصل إلى بيت رجل ذي رحمة. وعندما توسل طالبا الطعام والدهان، شعر ذلك الرجل الثري بالأسف من أجله. رحب به وفرد قطعة جلد حيوان له على الأرض: «من فضلك ادخل، اجلس وكُل.» حاول كينجوساي أن يرفض، لكن الرجل حثه وأحضر له عصيدة الفول، وأكل حتى شبع. وأحضر له مضيفه ماء ليغسل جسده، ودهنه بدواء ومرهم شافٍ. وقال: «خذ بقية الدواء معك، وبدلا من حك جروحك، ادهنها فقط.»

عندما رأى كينجوساي طيبة ذلك الرجل الرحيم، قال له: «أنا وزير رُووَا. لقد أرسلني لأرى إذا ما كان الناس على الأرض طيبين أم أشرارا. ومن أجل كرمك وأفعالك الطيبة، أنصحك أن تدعو أقاربك وأصدقاءك، وتدعوهم إلى القدوم والعيش في بيتك. أسرع من فضلك، لأن هناك حوادث مأساوية وشيكة.»

مضى الرجل الرحيم وجمع كل أحبابه الذين جاءوا بقطعانهم وخرافهم وماعزهم، وعندما حضروا جميعا وتأهبوا، قال كينجوساي: «بمجرد أن تسمعوا الدويّ المُحطِّم للماء الجاري بضراوة، تشبثوا سريعا بدعامات البيت، وابقوا صامتين، لأن رُووَا سيمر باطشا.»

في اليوم الثامن جلب رُووَا مياها هائلة من الغابة في الأعالي.

سحبت المياه بقوتها الأشرار مع كل الآخرين، وبيوتهم وطعامهم وكل ممتلكاتهم، وأبقارهم وخرافهم وماعزهم. خلت البلد بأكملها من جديد، ولم يبق أي شيء.

هكذا، عندما نهض الرجل الرحيم في الصباح، وجد البلد خالية. تساءل ورفع عينيه ناظرا إلى السماء. تفل ثلاث مرات ونادى ثلاث مرات باسم رُووَا، الإله الحق الذي حرر الجنس البشري في البدء.

أفريقيا

10. السماء الواقعة (هيريرو، ناميبيا)

منذ زمان بعيد بعيد، أسقط العظام في الأعالي السماء على الأرض؛ لأن الناس كانوا قد أصبحوا أشرارا وعاقين. فقد كل البشر تقريبا حياتهم. وضغطت السماء بثقلها على القلائل الذين بقوا، ضغطت بثقل شديد حتى أنهم في يأسهم ضحوا بخروف أسود.

كانت تلك الإشارة ذات تأثير فعال: إذ جذب العظام في الأعالي السماء إلى أعلى من جديد وأبقوها مكانها إلى يومنا هذا. مع ذلك، فقد تغير شيء ما. ففي الأزمنة القديمة كان بمقدور الناس التسلق إلى السماء، لكن هذا لم يعد ممكنا. لِمَ لا؟ لأن العظام وضعوا حراسا حيث تتلامس السماء والأرض، عمالقة ضخام: مخلوقات بعين واحدة، وأذن واحدة، وساق واحدة، وذراع واحدة. كل ما تمتلك أجسادنا اثنين منه، تمتلك أجسادهم واحدا فقط منه. وليس لأذرعهم ولا سيقانهم مفاصل كذلك.

وإذا حاول إنسان أن يتسلق صاعدا إلى السماء، بالرغم من تلك القاعدة، هناك عند الأفق، حيث تتلامس الأرض والسماء؛ يمسك به العمالقة ويجرونه إلى أسفل مرة أخرى. ومنذ هذا الوقت، أصبح من المتعذر على البشر الوصول إلى السماء.

أمريكا الهندية

11. طوفان من تحت الأرض (الأباتشي، أريزونا)

منذ زمن بعيد بعيد، لم يكن البشر يعيشون هنا فوق الأرض؛ بل عميقا تحتها. لكن جاء زمان لم تعد تنمو فيه أي ثمرة ولم يكن لدى الناس أي شيء ليأكلوه. فأرسلوا الطائر الطنان ليستكشف أين يمكن العثور على طعام. وأثناء طيرانه صاعدا في السماء، رأى كرمة عنب تمتد جذورها في العالم السفلي، عبر فتحة في منتصف السماء، وتنمو صاعدة إلى العالم العلوي. طار الطائر الطنان عبر الفتحة التي في السماء، ووصل إلى أرض مليئة بالمسكال[44] والفاكهة والزهور من كافة الأنواع. كانت هذه الأرض هي العالم الذي نعيش فيه الآن.

عاد الطائر الطنان وحكى للناس عن البلد الجميلة التي رآها، وتمنوا جميعا أن يصعدوا إليها. تسلقوا صاعدين المسافة كلها على كرمة العنب، وعبر فتحة السماء، حتى وصلوا إلى العالم العلوي. لكنهم كانوا قد تركوا قبيلة الضفادع العمياء خلفهم، في العالم السفلي.

44- المسكال نوع من الصبار يمكن تخمير مشروب مسكر منه.

عاش الناس بالفعل لفترة في الأرض الجديدة، ثم سمعوا ضجة غريبة تتزايد لتصبح هديرا. ترى ماذا يمكن أن تكون؟ أرسلوا رجلا لينظر عبر الفتحة، ورأى الرجل المياه ترتفع من العالم السفلي، مياه عالية للغاية حتى أنها كانت قد وصلت تقريبا إلى العالم الذي كانوا يعيشون فيه. وكانت الضفادع العمياء في الأسفل هي التي تسببت في ذاك الطوفان لكي يكتسح الناس.

أحس الناس بالقلق. ماذا يمكن أن يفعلوا؟ قاموا بتقوير شجرة وملأوا الجذع الأجوف بالثمار والبطانيات. واختاروا صبية جميلة ووضعوها بالداخل حتى تبقى حية. وعندما صعد الطوفان من أسفل عبر فوهة الفتحة، انغلق الجذع الأجوف. فرَّ الناس إلى أعلى الجبال، لكن حتى هناك ارتفعت المياه وغمرتهم.

ظل الجذع يطفو بينما ظل الطوفان يرتفع عاليا جدا حتى أن الأمواج دفعت الجذع نحو السماء، حيث اصطدم بها في صوت مدوٍ. بعد ذلك وبالتدريج غاض الماء، حتى استقر المقام بالجذع على الأرض من جديد. فتحت الصبية الجذع وخطت على الأرض. نظرت في كل مكان حولها، لكن لم يكن هناك من أحد باقٍ. كان كل الناس قد غرقوا. كان لا بد للعالم أن يبدأ من جديد، وكانت الفكرة الأولى التي طرأت على بال الصبية الوحيدة الناجية هي: «كيف يمكن أن أحبل بالأطفال؟ كيف يمكن أن أصنع ناسا جديدة؟»

مبكرا قبل شروق الشمس مضت صاعدة في الجبال ورقدت

هناك، وحيدة تماما. وشيئا فشيئا بزغ الضياء وسطعت أشعة الشمس دافئة على جسدها بينما كان الماء يقطر من الجرف. وهكذا حبلت وولدت وحدها ابنة. وعندما كبرت الابنة، قالت لها الأم: «هل تعرفين كيف أتيتِ إلى الوجود؟»

«لا..» أجابت الفتاة.

«سأُريكي..» قالت الأم، ومضت بابنتها صاعدة في الجبال. «رجاءً، ارقدي..» قالت، ورقدت الفتاة مثلما كانت قد فعلت أمها. طوال اليوم رقدت الفتاة على الجبل وفي الصباح التالي قبل شروق الشمس، جاءت أمها ورقدت فوق ابنتها بينما كانت تنظر نحو الشمس. ثم نهضت قافزة بسرعة، وهكذا حبلت الفتاة من الشمس. والطفل الذي ولدته كان ابن الشمس: سيكالا كا-امجا.[45]

45- Farmer 1979:53.

أمريكا الهندية

12. نهايات مختلفة (بومو، كاليفورنيا)

قرر (مادومدا) أن يخلق العالم، وأراد أن يستشير أخاه الأكبر: (كوكسو). لكن أين يجده؟ انتزع بضعة شعيرات من رأسه وسألها أن تقوده إلى حيث كان أخوه. طارت الشعرات إلى الجنوب، وتبعها مادومدا جالسا على سحابته بينما كان يدخن غليونه حتى وصل إلى بيت كوكسو. وكالعادة، دخن الأخوان الغليون أربع مرات في صمت.

كشط (مادومدا) قطعة جلد من تحت إبطه، وبرمها في شكل كرة صغيرة، وأعطاها لأخيه (كوكسو) الذي وضعها بين أصابع قدمه. وكشط (كوكسو) قطعة جلد من تحت إبطه، وبرمها في شكل كرة صغيرة، وأعطاها لأخيه (مادومدا) الذي وضعها بين أصابع قدمه. نفخ الإلهان أربع مرات، كلٌ في كرته الصغيرة من الجلد، قبل أن يخلطا الكرتين الصغيرتين ببعض من شعرهما. ثم وقفا، بمواجهة الاتجاهات كلها، وأعلنا مجيء الخلق.

غنّى (كوكسو) لأول مرَّة أغنية الخلق القديمة في الوقت الذي غادر فيه أخوه. وأثناء رحلة عودته الطائرة، جالسا على سحابته،

غنى هو أيضا، والكرة مثبتة على خيط صغير عبر شحمة أذنه. في بيته ذهب لينام ثمانية أيام، بينما كبرت الكرة وتحولت إلى الأرض. وعندما استيقظ ألقى بالكرة عاليا في الهواء. ودخن ثم ألقى غليونه المشتعل في السماء حيث تحول إلى الشمس.

بسيره في ضوء الشمس الجديد تماما خلق الجبال والوديان، والبحيرات والبحار، والأشجار والنباتات والحيوانات. وبتدوير الأرض ناحية وأخرى خلق الليل والنهار. وخلق الناس. من الصخور شكّل بعض المدكوكين القصار، ثم من شعره صنع بعضا آخر جميلا بشعر طويل. من الريش شكّل أناس الطير، ومن شعر إبطه شكّل أناس الغزلان المشعرين. صاغ كل أنواع الناس على غرار كل أنواع الأشياء. وفي النهاية، خلق من الأعصاب أناسا عراة مثلنا. وعلمهم كيف يشتغلون في الأرض التي أعطاها لهم، وكيف يأكلون، وكيف يعيشون.

ومع ذلك، عندما بدأ الناس يسيئون التصرف؛ فيقتلون بعضهم البعض ويهملون أطفالهم، أرسل (مادومدا) طوفانا ليكتسحهم. لكن بمجرد فنائهم، جاءت قرية جديدة إلى الوجود برغبته. وملأت أفكاره القرية بناس جديدة سرعان ما صاروا أشرارا هم كذلك. فأحرق هذا الخلق حرقا بنار مدمرة.

من قضبان الصفصاف صنع البشر مرة أخرى، وعلمهم كيف يصيدون بالقوس والسهم، وكيف يصنعون السلال، وكيف يأكلون. وعاد إلى بيته في الشمال، لكن أناس قضبان الصفصاف

هؤلاء فسدوا أيضا، فأرسل (مادومدا) من الشمال الثلج ليقضي عليهم. بعد ذلك صنع ناسا من قضبان الصفصاف مرة أخرى، وبعد أن غادر عرف فورا في حلم أنهم قد فسدوا كذلك. وبناء على نصيحة أخيه (كوكسو)، أرسل رياحا عاتية أطارتهم جميعا. لم ينجُ إلا سنجاب الأرض الذي اختبأ في جُحره .

في النهاية صنع (مادومدا) من قضبان الصفصاف جماعات مختلفة من الناس الذين تحدثوا لغات مختلفة وعاشوا في قرى مختلفة. علمهم الزراعة والنسيج، وكيف يأكلون بشكل صحيح. وأعطى كل الحيوانات المختلفة أماكنها الملائمة، وقبل أن يغادر حذر الناس من إساءة التصرف. وتلك إذن هي فرصتنا الأخيرة.[46]

46- Cf.the Sources section below. Cf Leeming and Leeming, Creation 229-30; Leach 37-46.

أمريكا الهندية

13. واتونّا (ماكيريتاري، فنزويلا)

ينحدر الماكيريتاري من شعب أراواك الهندي. وهم يعيشون عند الضفة الشمالية لنهر أورينوكو. تحكي أساطيرهم عن «الناس القدامى»؛ أسلافهم السماويين الذين عاشوا هناك في الأعالي في كاهونا، مكان السماء.

في كاهونا لم يكن هناك إلا الضوء. وكان (وانادي) يعيش هناك عندئذ، مثلما يفعل الآن. كانت السماء والأرض مازالتا شيئا واحدا، كانت الأرض جزءا من السماء، ولم يكن للسماء أبواب بعد. أرسل (وانادي) إلى الأرض رسوله، روح (وانادي) – المُسمَّى (وانادي) الجديد. قبل أن يهبط (وانادي) الجديد، كان هناك بالفعل ناس يعيشون على الأرض، لكن أغلبهم كانوا ينتمون إلى سيد القوى الهدَّامة، الذي كان يعيش في الأسفل عميقا في الكهوف المظلمة.

عاليا في السماء كانت توجد بيضة صخرية مليئة بالناس. كانت تلك البيضة، المسماة هويهانًا، مستديرة كالكرة، وضخمة ومجوفة، قشرتها سميكة وصلبة وثقيلة. في داخلها كان ناس

(وانادي) الذين لم يولدوا بعد ينطقون الكلمات، كان بإمكانك أن تسمع أغانيهم وضحكهم وصراخهم وغناءهم ورقصهم، لكن لم يكن بمقدورك أن تراهم.

كان (نونا)، القمر، شريرا وجائعا دائما. وكان قد سمع بنيَّة (وانادي) الجديد في أن يأخذ البيضة من مكانها في كاهونا، وبسرعة مضى إلى هناك وأخذ البيضة إلى مكانه.

فكَّر (نونا) مثل النمر المُرقَّط: إذا نقص الطعام الآخر سآكل الناس. لكن أخته (فريمين) وجدت البيضة جميلة. كانت هويهانًا تطنُّ كخلية نحل، والناس بداخلها يرقصون ويغنون. عرفت (فريمين) أن أخاها يريد أن يأكل البيضة، وقالت في بالها: سأنقذهم، سأبقيهم لنفسي، سأفقسهم وأربيهم. سأكون أمهم.

وبمجرد أن غادر (نونا) البيت، خبأت (فريمين) هويهانًا بسرعة في مهبلها. مسحت على بطنها وكانت سعيدة عندما استمعت إلى الرقص وانفجارات الضحك من ناس (وانادي) الصغار.

عندما عاد (نونا)، رأى أن البيضة قد اختفت. غضب بشدة وبدأ في ضرب أخته. ورأى أن بطنها كانت مستديرة كما لو كانت حبلى. وعرف ماهية الأمر، لكنه لم يقل شيئا.

أدارت ظهرها إليه وغادرت. قالت: «أنا متعبة. سأذهب لأدخل في أرجوحة نومي، سأنام.»

كانت وحيدة تماما وفي صمت الليل كانت تنصت إلى بطنها.

سمعت الأصوات والطبول، الأغاني والأبواق – أطفالها. ثم سقطت نائمة. عندما استيقظت وفتحت عينيها، كان الجو مظلما وهادئا، لكن كان هناك ثمة صوت غامض، مثل خطوات تقترب، وشعرت بالخوف. ترى من يمكن أن يكون؟ ببطء شديد كانت الخطوات تقترب من أرجوحتها. وفجأة سقط شيء كبير على الأرجوحة. كان جسدا. كان رجلا. لم يقل شيئا. وكانت الفتاة مرعوبة.

كانت يداه تجوسان في كافة أنحاء جسمها، مثل نحلات تهبط هنا وهناك. كانت يداه تتحسسان وتفتشان، وكان بمقدورك فقط أن تسمع هويهانًا تطنُّ بوداعة في الداخل. ضمت ساقيها بشدة مغلقة إياهما لتحمي أطفالها. كانت يدا الرجل تحاولان فتح ساقيها، لكنهما لم تقدرا . قبل الفجر قفز الرجل خارجا من الأرجوحة ولم يكن هناك من صوت مسموع غير خطواته البطيئة وهي تتحرك مبتعدة. وعندما طلعت الشمس، نهضت الفتاة. ما الذي قد حدث؟ هل كان حلما؟ مَن كان؟ أريد أن أعرف، هكذا فكرت الفتاة.

عندما حل الليل، دعكت جسدها بزيت كاروتو الأسود، دهنت به وجهها وساقيها وجسدها كله حتى أنها صارت سوداء تماما بالكاروتو. دخلت أرجوحتها وذهبت إلى النوم. عندما استيقظت، كانت هناك تلك الخطوات في الظلام مرة أخرى، قادمة ببطء نحوها. سقط الرجل فوقها وجاست يداه تتحسسان جسدها كله. قبضت اليدان على ساقيها، أرادت اليدان أن تفتحا الكهف، أرادتا

هويهانًا، لكن الفتاة ضمت ساقيها مغلقة إياهما بشدة. انقلب الناس داخل البيضة. وصلت إحدى اليدين إلى الداخل ولمست هويهانًا. حاولت اليد أن تمسك البيضة، لكن الفتاة قاتلت لتردها. وبدأت تنزف، وهذا هو السبب في أن النساء ينزفن عندما يمر (نونا). يؤدي هذا النزيف دور المُذكِّر بما حدث.

عندما طلعت الشمس كانت الفتاة وحدها من جديد. قفزت خارجة من الأرجوحة. ستعرف حقيقة الأمر الآن. في طريقها وجدت أخاها، مختبئا في حقل بجوار فخ.

«ماذا تفعل؟» تساءلت.

فقال: «شش.. أنا أصطاد.» رفع وجهه ناظرا إليها وكشف عن وجهه. كان ملطخا بالكاروتو، وكذلك يداه وجسده.

كان هو، قالت لنفسها، لكنها غادرت دون كلمة. ومن ساعتها و(نونا) له وجه ملطخ، كما يمكننا أن نرى عندما يكتمل القمر. تُذكرنا اللطخات بالبداية.

ذهبت (فريمين) إلى البيت، وحزمت أشياءها وفرَّت إلى داخل الغابة بأطفالها داخلها، وذراعاها ممتلئتان باليقطين والسلال. وبينما كانت تعدو أسقطت ثمرة يقطين. وعندما اصطدمت بالأرض، تحولت إلى بطة صفَّارة. ووقعت واحدة أخرى وتحولت إلى طائر غطَّاس. ظلت المرأة تعدو حتى وصلت إلى نهر أورينوكو. وفرت عائمة من بيت أخيها. قالت: «طيب،

أنا لا أستطيع العبور. أنا (الأم النهر)، (سيدة الماء).» وتحوّلت إلى هُوِييُو، الحية العظيمة، واختبأت أسفل الماء. لم يكن بمقدور أحد رؤيتها. وبنت بيتها في أعماق منحدرات النهر. كان نهر الأورينوكو قد وُلد للتوّ وكانت جميع الأنهار قد بدأت في التدفق للتوّ. والآن جاءت هُوِييُو إلى الوجود وجعلت نفسها سيدة النهر الحديث التدفق.

كان (وانادي) يبحث في كل مكان عن بيضته المسروقة. طاف يسأل الناس لكن أحدا لم يعرف. ذهب إلى بيت (نونا) الذي قال له: «أختي تعرف كل شيء عنها. لقد خبأت هويهانًا في بطنها وفرّت بعيدا في الصباح.»

مضى (وانادي) يبحث عن الفتاة. ولم يبدُ أن أحدا قد رآها. ناداها، لكنها لم ترد. وكان لدى (وانادي) أخ اسمه (مودو) والذي كان يستطيع أن يحول نفسه إلى طائر بمنقار ضخم. قال (وانادي) لأخيه: «أنت خطيبها، إذا ناديتها ستخرج وعندئذ نمسك بها.»

«إنها جميلة. بمنقاري الضخم وعينيّ الضئيلتين لن تكون مهتمة بي. أنا أقبح من اللازم. أنا واثق أنها لن تخرج إذا ناديتها.»

قال (وانادي): «دعنا نحاول على أي حال. من فضلك ساعدني. لا أريد أن أفقد هويهانًا.»

وافق (مودو). ونادي صديقه (هوهوتّو) طائر البوم. وقال:

«ساعدني، هيا نناديها.» حوَّلا نفسيهما إلى طائرين ليليين، يناديان ويزعقان الليل بطوله. وعندما أشرقت الشمس رفعت جسدها من الماء عاليا في الهواء وقالت: «ها أنا ذا.» لكن لم تكن الفتاة هي ما رأيا، بل الحية العظيمة، كانت هُوِيئُو.

«مَن أنت؟» سألها (مودو). وضيَّق عينيه ليرى بشكل أفضل.
«لا، أنا لا أعرفك، أنا لم أناديكي أبدا.»

«بلى فعلت..» قالت. «إنها أنا، خطيبتك. لقد ميزت نداءك ولذلك جئت.» بمجرد خروجها، كان بمقدورهما سماع الموسيقى الصادرة من هويهانًا: داخل بطن الحية، كان أطفال (وانادي) يغنون ويرقصون، وينتظرون الخروج.

«وانادي يريدك أن تعيدي هويهانًا إليه.»
«لا..» قالت «لا يمكنني القيام بهذا، أطفالي فيها.»
«إنهم ليسوا أطفالك، إنهم أطفال وانادي.»
ورفضت أن تعيدها إليهما.

عندئذ صاح (مودو) و(هوهوتُّو) في كل اتجاه، منادين الناس، وجاء الكثيرون بالأقواس والسهام والرماح كي يمسكوا بها ويقتلوها. أعطى (مودو) و(هوهوتُّو) الأوامر للجميع، وبدأوا في مطاردة (هُوِيئُو) على طول النهر. من بعيد رأوا تاج الحية المصنوع من الريش، قوس قزح. فردت (هُوِيئُو) ريشها في الهواء ليجف في الشمس.

نظر الصيادون إلى قوس قزح وصاحوا: «ها هي ذا!» وتوجهوا بالكلام إلى (ديدي) الخفاش: «اسمع، ابق هنا وراقب، بينما سنطلق نحن سهامنا، ونقتل الحية، ونُخرج هويهانًا. عندئذ تمسك أنت هويهانًا عندما تسقط، حتى لا تقع في الماء.»

«هذا حسنٌ..» قال ديدي. «سأنتظر هنا.»

كان الصيادون كثيرين. بدأوا في إطلاق السهام على الحية العظيمة، وطارت كل سهامهم في نفس اللحظة. بدت هُوِيبُو بالسهام التي غطت جسدها كله أشبه بحيوان الشيهم. سقطت وأطلقت سراح هويهانًا. ارتفعت البيضة الحجرية عاليا في الهواء وكان (ديدي) مستعدا للإمساك بهويهانًا في شبكة صيده.

فجأة توجه (فيشا)، طائر الوقواق مباشرة نحو (ديدي). بذيله الطويل دفع (ديدي) جانبا وأمسك بشبكة الصيد. وقال: «ابتعد، سأفعلها أنا. عيناك أصغر من اللازم بكثير.» بغروره وجموحه المعتادين، تسبب (فيشا) في الحادثة. فقد أخذ الشبكة في نفس اللحظة التي خرجت فيها هويهانًا. وحاول أن يمسك بالبيضة لكن بعد فوات الأوان. كانت البيضة قد طارت وسقطت في الماء.

صاح الصيادون: «ضاعت البيضة، لقد فقدناها بسببك!»

اصطدمت البيضة بصخرة هائلة في الماء وانفتحت، وتطاير الناس الذين لم يولدوا بعد في كل اتجاه. ومع ذلك فإنهم لم يغرقوا. تحولوا إلى بيض سمك وعندما انفتحت هذه البيضات،

خرجت مئات الأسماك تسبح. وبعد الأسماك خرجت التماسيح، والكيمن وأفاعي الأناكوندا، وكل الحيوانات الأخرى التي تعيش في الأنهار والبحيرات اليوم. كانت (هُوِييُو) هي أمهم. وكانت قد سقطت على ضفة النهر بعد أن قتلتها السهام. لكنها كانت أقوى بكثير من أن تكون فانية. تركت فقط هيئتها خلفها، كما يُذكرنا قوس قزح. وهي الآن تعيش في بحيرة أكوينا، في (السماء الأعلى)، كسيدة الأكوينا: الحياة الأبدية.

بقي جسدها الثعباني على الأرض وأكلوه. كان هناك نمر مُرقَّط اسمه مانُووَا هو الذي أخذ أول قضمة، وامتلأ فمه بالدم.

«أنا جائع!» تصايح الآخرون عندما رأوا الدم. فقد كانوا يأكلون دائما نبات اليوكّا والفاكهة، ولم يأكلوا اللحم قبل ذاك. في نفس ذلك اليوم بدأوا الصيد، وفي نفس ذاك اليوم أكلوا جميعا اللحم للمرة الأولى. لن ننسى أبدا ذلك الصيد الأول، لن ننسى أبدا موت (هُوِييُو). كانوا يدفعون ويزيحون بعضهم البعض ليحصلوا على لقمة. أكلوا الحية العظيمة، أم الماء. وكان النهر الملطخ بالدماء قد امتلأ بالسمك الآن. لم يكن ناس (وانادي) قد وُلدوا بعد، كانوا قد تحولوا إلى سمك.

غربت الشمس. لم يبق هناك غير (مانُووَا) النمر المُرقَّط، وزوجته (كاواو) ضفدع الطين. نظرت (كاواو) إلى الدم على الصخور بجوار ضفة النهر ورأت بيضتي سمك. كانتا قد سقطتا على الصخر ولم تنفتحا بعد.

قالت امرأة (مانُووَا): «سأعتني بهما، سأفقسهما وسأكون أمهما.»

فقال (مانُووَا): «حسنٌ، سيكونان بشرا، وسيكون لدينا لحم في البيت.»

أنقذت (كاواو) بيضتي السمك، طفلي (هُويِيُو). كانا قد خرجا من هويهانًا مع السمك، كانا أخوين للسمك، لكنهما لم يكونا سمكتين عندما وُلدا، كانا ولدين. كان الأكبر اسمه (شيكييمونا)، والأصغر اسمه (يوريكي). واعتقدا أن (مانُووَا) و(كاواو) هما أباهما وأمهما. كبرا بسرعة، مشيا في الحال وتكلما في الحال. وعلى الفور لم يعودا طفلين بل شابين قويين. كان الاثنان جامحين وعنيدين، كانا يجريان صائحين وصارخين ومتعاركين، وذات يوم رمت بهما أمهما خارج البيت. ذهبا ليسبحا في النهر وغاصا مع السمك. في القاع وجدا بيتا هائلا. كان فارغا ودخلا فيه.

«بيت لطيف..» قال الأكبر.

«أشعر كما لو أني كنت هنا من قبل.» أجابه الأصغر. كانت هناك أرجوحتان ودخلا فيهما. وبمجرد أن ناما، ظهرت (هُويِيُو) في حلمهما. قالت الحيَّة العظيمة: «هذا بيتي، إنه بيتكما. أنا أمكما و(وانادي) أبوكما. ضفدعة الطين ليست أمكما والنمر المُرقَّط ليس أباكما. لقد كذبا عليكما. لقد قتلاني وأكلا جسدي. أنا أعيش الآن في كاهونا وأكلمكما في الأحلام، احترسا من النمر

المُرقَّط؛ فهو يريد أن يأكلكما، وسيتوجب عليكما أن تقتلاه قبل أن يقتلكما.»

عندما استيقظا في قاع النهر، حيث كانا نائمين في بيت أمهما، بيت (هُويِيُو)، وجد التوأمان يقطينة مملوءة بزيت كاروتو. ثم حلما مرة أخرى.

«هذه يقطينتي، زيت كاروتو خاصتي. ألقياه حتى تفيض الأنهار ويغطي الماء الأرض بأسرها. ستغرقان الناس الذين جاءوا جميعا ليقتلوني ويأكلوني، حتى الصغار منهم.»

عندما استيقظ الفتيان من هذا الحلم، قررا أن يثأرا لأمهما: «سنغرق الأرض بأسرها والناس جميعا.»

ذات يوم اجتمع الناس كلهم على وليمة، وسكروا جميعا. قال (يوريكي): «لقد حان وقتنا.» ووافقه (شيكييمونا).

غاصا في النهر، وذهبا مباشرة إلى القاع. جاءا إلى بيت (أم الماء) الفارغ، حيث كانت يقطينة (هُويِيُو) المليئة بزيت الكاروتو مخبأة. عادا بها إلى الأرض وقذفاها، ففاضت الأنهار وغرقت الأرض كلها. كان الأخوان قد أشعلا النار في البيوت، لكن عندما جاء الماء انطفأت النار وانهارت البيوت. صاح الناس وصرخوا وجروا. اختبأ قلة من الناس الصالحين في شقوق في المنحدرات الصخرية، عاليا في الجبال. وغرق كل الآخرين. وكان الماء الذي غطى الأرض كلها هو الماء الكبير المسمى داما (البحر)، الماء الذي بلا شطآن.

في البداية جرى الفتيان، وفيما بعد كانا يعومان كالسمك، لأن أحدا لم يكن بمقدوره أن يرى أي شيء غير (داما) – لا بيوت، ولا غابات، ولا جبال. لم تبق إلا شجرتا نخيل عاليتان. كانت شجرتا الحياة ملتصقتين ببعضهما، كالأخوين. ارتفع الأخوان عاليا، عاليا، عاليا، صاعدين الطريق بأكمله إلى السماء. تسلقا وجلسا هناك، عاليا في تلكما النخلتين. وبنيا مصطبة عاليا هناك بين الشجرتين. ومن هناك نظرا إلى (داما) في الأسفل. استراحا وأكلا من ثمار النخيل، وظلا يأكلان ويأكلان، منتظرين أن تجف الأرض من جديد. وأخيرا عاد (داما) إلى الأفق، حيث تنتهي الأرض. وبقي هناك منذ وقتها.

قال الفتيان: «انتهى الأمر الآن، هيا بنا.» هبطا وسارا على الأرض الطرية. لم يكن هناك غير الطين فقط ولا شيء آخر. فغادرا الأرض وعادا إلى السماء.

مات أغلب الناس بسبب (داما)، الماء الذي بلا شطآن. نجا القليلون وعاشوا بعدها. كان هؤلاء هم الصالحون. كانوا يختبئون في الجبال وفي ثمرات اليقطين. أما الأشرار فقد عوقبوا. هذا ما يقوله الناس القدامى.

«حسنٌ..» هكذا فكر (وانادي).. «لم يبق إلا تلك القلة. حسنا إذن، سأصنع ناسًا جديدة.»

أمريكا الهندية

14. جثة الحمامة (شيرينتي، بيرو)

منذ زمن بعيد كان إله الشمس مستاءً من الهنود الذين كانوا يقاتلون ويقتلون بعضهم البعض، بل ويقتلون حتى أطفال بعضهم الصغار. وكان كوكب الزهرة قد انفصل عن السماء وجاء ليعيش على الأرض في شكل رجل، رجل تغطي جسده كله قروح نتنة مفتوحة وتئز حوله ذبابات شرهة. كان الناس يسدُّون أنوفهم ويفرُّون منه، وكلما جاء إلى بيوتهم ليتسول المساعدة صفقوا الأبواب في وجهه ورفضوا أن يدعوه يدخل أو حتى أن يتكلموا إليه.

هندي واحد فقط كان يشعر بالأسف من أجله. وكان اسم الهندي: (وايكاورا). كان يحترم عادة كرم الضيافة القديمة ورحب بالغريب البائس. وأمام الأسئلة المهذبة لمضيفه أجاب (الزهرة) بأنه قد ضل طريقه. قاد (وايكاورا) الشخص المسكين وجعله يعبر عتبته وأجلسه على حصيرة جديدة. وأمر ابنته، وهي فتاة عذراء، بأن تُحضر سلطانية بها ماء نظيف وتغسل قروح الرجل. وبعد ذلك أمرها أن تجلس على حِجر الرجل وتعانقه وتلاطفه وتريحه. بفضل كل هذه العناية الطيبة التأمت الجروح وأصبح

الغريب في حال طيبة سريعا من جديد.

وعندما حل المساء، قال الزهرة لوايكارا: «هل تريد أن تعيش أم تريد أن تموت؟»

رد الرجل: «أُفضل أن أعيش بالطبع، لماذا؟»

«إله الشمس لم يعد بإمكانه أن يتحمل كل هذا القتل. لقد وصل صبره إلى نهايته. أنصحك بأن تُعدَّ سرّا لرحيلك. لكن لا بد أولا أن تذهب وتصيد حمامة.»

تساءل الرجل عن السبب، لكنه ذهب وأطلق سهمه على حمامة عابرة، وعندما سقطت التقط الجثة وحملها إلى البيت.

تصرف (الزهرة) كما لو أنه خلال غياب مضيفه قد اغتصب الفتاة: «لقد كنت ضيفا حقيرا. لقد أدخلتني رغم رائحتي النتنة عندما لم يقبلني أي شخص آخر. وأمرت ابنتك أن تكون لطيفة معي وانتهزت أنا هذه الفرصة، وألحقت بها العار. ماذا ستفعل الآن؟ أي رجل سيتزوجها؟ سيكون لديك كل الحق في أن تطردني ركلاً. دعني أكافئك على هذا.»

«لا، لا، أنت ضيفي الكريم..» رد الرجل بأقصى أدب، بينما كان يصطحب ضيفه إلى الباب. «كان سرورا وشرفا لي أن أرحب بك، لكن من فضلك قل لي: لماذا هذه الحمامة؟»

وقبل أن ترفعه دوامة من الرياح، حوَّل الزهرة جثة الحمامة إلى فُلك سيتمكن (وايكاورا) وعائلته من النجاة فيها.

من بعيد ارتفعت كتل من المياه الهادرة، وبدأ مطر ثقيل في السقوط. جرفت المياه كل الهنود وغرقوا. فقط هذا الرجل وعائلته طفوا بأمان في مركبهم، حتى غاض الطوفان.

أوقيانوسيا

15. العقاب والنجاة (فيجي، ميلانيزيا)

قتل حفيدا (ندينجي) الإله الأعلى طائره المفضل (توروكاوا). وبدلا من الاعتذار عن الإساءة، سبَّا الإله وشتماه. وبمساعدة أصدقائهما حصَّنا المدينة وتحديا الإله أن يفعل ما شاء. كان (ندينجي) غاضبا جدا. استغرق ثلاثة أشهر كي يجمع قواته، لكنه أثبت أنه غير قادر على إخضاع الفتية المتمردين. لذلك سرَّح جيشه، وقرر أن يختار انتقاما أشد وقعا.

بأمر منه تجمعت سحب سوداء طائعة من كافة أنحاء السماء وتفجرت منها أمطار هائلة تنسكب بلا انقطاع على الأرض. وسرعان ما أغرق الطوفان المدن والتلال والجبال. شعر المتمردون بالأمان في مكان إقامتهم العالي، ونظروا في البداية إلى الجو الرهيب دون اكتراث. لكن المياه ارتفعت عاليا جدا حتى بدأت أمواج هائلة تجتاح حصنهم، وفي كرب أخذوا يتوسلون إلى الآلهة.

يقول البعض أن الآلهة أمرتهم بأن يبنوا طوفا يطفو على ثمار اليقطين، ويحكي آخرون أنه تم إرسال زورقين لإنقاذهم،

بينما مازال يؤمن آخرون بأنهم كانوا يعرفون كيف يبنون مركبا، وبذلك أمنوا نجاتهم. في كل الأحوال اتفق الجميع أنه حتى أعلى الأماكن قد تغطت، بحيث أن آخر جماعة من الجنس البشري نجوا في نوع ما من المراكب. لم ينجُ من الطوفان أكثر من ثمانية أشخاص. وقد ألقت المياه الغائضة بمركبهم في امبينجا (بيكا). وهذا هو السبب في أن أهل امبينجا يقولون أنهم في المرتبة الأولى من بين جميع الفيچيين.

أوقيانوسيا

16. رواهاتو، إله المحيط (راياتيا، بولينيزيا الفرنسية)

منذ زمان بعيد بعيد، جاء طوفان من المحيط. حدث هذا بعد فترة طويلة من انفصال السماء عن الأرض وتحركها إلى أعلى. كان هناك رجلان اسمهما (تياهوروا) و(رووّو)، وكانا صديقين حميمين وعاشا سويا. وذات يوم، كانا يصطادان سمك البنبان في المياه العميقة، وكانا محظوظين: فقد وجدا ما كانا يبحثان عنه قرب جزيرة صغيرة تُدعى توا-ماراما (صخرة القمر). كان صيدهما وفيرا، لكنهما دون قصد اقتربا من كهف (رواهاتو) المرجاني، والذي كان بالنسبة له مكانا مقدسا جدا. وحدث أنهما وصلا هناك في اللحظة التي كان فيها (رواهاتو) يأخذ قيلولة في كهف الأعماق ذاك.

ألقى (تياهوروا) و(رووّو) شصيهما المربوطين إلى الحجارة في الماء. ولسوء الحظ سقط أحد الشصين بحجره على التاج الموضوع فوق رأس الإله. فاستيقظ، ومد أصابعه خلال شعره، ووجد الشص والحجر. رأى (تياهورو) و(رووّو) الخيط يهتز بقوة واعتقدا أنها سمكة. جذبا الخيط وشاهدا رأسا ذات شعر

كثيف تتمدد وتخرج صاعدة نحو الزورق. هتف كلاهما: «ويل لنا، هذه ليست سمكة، بل وحش من وحوش الأعماق. نحن هالكان الآن.»

عندئذ ظهرت رأس (رواهاتو) مكشرة في وجهيهما: «من أنتما؟»

«نحن (روؤو) و(تياهوروا). لقد تجاوزنا حدودنا بمجيئنا إلى هذه البقعة المقدسة. رجاءً، سامحنا نحن الاثنين يا أيها الملك. لن يحدث هذا مرة أخرى أبدا.»

عندئذ سألهما وحش البحر: «هل لديكما أقارب وأهل على البر؟»

«نعم، لدينا أقارب وأهل على البر.»

«هل لديكما أسرة ملكية؟»

«نعم، لدينا أسرة ملكية.»

«وهل توجد الأميرة إيرارو أيضا، تلك التي تعشقها آلهة المحيط؟»

«نعم، بالفعل، الأميرة موجودة.»

«هل لديكما أطفال على البرّ؟»

«نعم، لدينا أطفال وأحفاد.»

فقال (رواهاتو): «اذهبا وقولا لهم جميعا أن يأتوا هنا إلى توا-ماراما على الفور. لقد كنتما فظين معي، لقد أزعجتماني ولذلك أنا مغتاظ منكما. ستنجون جميعا بسبب الأميرة (إيرارو)، إذا عدتم هنا دون تأخير. الليلة أنا، (رواهاتو)، ملك المحيط الجبار، سأدمر راياتيا تماما. لن أحطم الغصون فقط، بل سأقتلع الأشجار من جذورها كذلك.»

جدَّف (روؤو) و(تياهوروا) عائدين إلى أرضهما. كانا قلقين للغاية وحذرا بسرعة أهلهما وأطفالهما وأحفادهما وزوجاتهما؛ وكذلك الأسرة الملكية وأقاربهما. من بعيد كان الناس يرون أن شعر رأسي الصديقين كان منتصبا على آخره بسبب خوفهما الهائل! أخبرا كل من على البرّ: «تعالوا، لا بد أن نرحل إلى توا-ماراما فورًا. أخبرنا الملك (رواهاتو) أنه لا يجب أن يبقى أي أحد على اليابس الليلة. لقد أثرنا استياءه، وعما قريب سيغرق الأرض كلها، ولن يبقى أحد. لن ينجو إلا هؤلاء الناس والطير والكلاب والخنازير والجرذان الذين سيذهبون إلى توا-ماراما.»

بسرعة جيء بكل أعضاء الأسرة الملكية بأسرها إلى الجزيرة الصغيرة. وكل أهل بيت (روؤو) و(تياهوروا) وكذلك بعض الناس الآخرين أخذوا الرسالة بجدية. لكن الآخرين ضحكوا وسخروا منهم أو ببساطة تظاهروا بالصمم.

أما هؤلاء الذين انتبهوا لرسالة ملك المحيط الجبار فقد استعدوا وجدَّفوا مبتعدين في ذعر هائل، متجهين إلى توا-ماراما حيث

هبطوا في صمت تام. وكل الطيور والعناكب والحشرات، ظلال الآلهة، فقد احتجزتهم معبوداتهم على الترتيب في السماوات من أجل سلامتهم.

بعد فترة، سمع الناس دمدمة البحر وقعقعة المرجان، وقصفت الأمواج أغصان الشجر. وتناهى صوت البحر المندفع وهو يغطي صخور الشاطئ. وكلما تقدم الليل، تلاطمت مياه البحر صاعدة وارتفعت عاليا فوق اليابسة. فقط صخرة توا-ماراما في منتصف المحيط هي التي بقيت جافة، بسبب وجود الأميرة (إيرارو)، محبوبة آلهة البحر.

سقطوا كلهم في نوم عميق وعندما استيقظوا عند انبلاج الفجر، رأوا البحر ينسرب عائدا إلى قاع المحيط. فيما بعد في الصباح، عند الجزر، جفت صخور الشاطئ من جديد، وبدا البحر هادئا تماما؛ كما لو أنه لم يكن يتقلب هائجا منذ قليل.

في نفس هذا الصباح جدَّف الناس عائدين إلى أرضهم. كان البحر مليئا بالأخشاب الطافية وطمي الأرض. وعلى الشاطئ وجدوا صخورا دبقة، وأغصانا مرجانية، وأسماكا ميتة، وأصدافا رخوية متناثرة هنا وهناك، مع أغصان متكسرة وأشجار مقتلعة في كل مكان. لم يكن هناك أي مخلوقات حية باقية على البرّ، فقد اكتسحهم المحيط جميعا، الناس والحيوانات.

هؤلاء الذين عادوا من توا-ماراما بقوا أولا سويا على الشاطئ.

لم يكن لديهم أي طعام آخر غير الطين الأحمر والسمك. لكن بعد ذلك بدأت الأشجار تبرعم من جديد، وفي شهر واحد عادت الخضرة، وبدأ كل موسم ينتج ثماره من جديد.

هكذا في تلك الفترة الحالكة تم إنقاذ الأسرة الملكية وبعض الناس. وعادت الحيوانات أيضا. وأُرسلت الطيور والعناكب والحشرات مرة أخرى لتهبط من السماوات إلى أماكن سكنها المعتادة. وسرعان ما بدت الأرض بأكملها كما كانت قبل الطوفان.

فاصل:
كيف تحاشت الآلهة النهاية

آسيا

17. أماتيراسو وسوسانو، أو الظُلمة كعقاب (يابانية)

في كل القصص الأسطورية في هذا الكتاب، إما تكون النهاية قد حدثت ذات مرة في الماضي، أو أنها تهدد مستقبل البشرية. لكن يبدو أن اليابان لا تملك أسطورة عن دمار العالم. هذه القصة اليابانية فريدة في حكيها كيف أن النهاية الكارثية للبشرية لم تحدث في الحقيقة. بفضل التدخل السماوي التكتيكي للآلهة في موقف حرج للغاية، أمكن تجنب النهاية الخانقة في الظلام التام. في النهاية، لم تكن الآلهة ولا البشر سيبقون أحياء في كون بلا نور للشمس.[47]

كان (سوسانو)، «الذكر الطائش»، شقيقا لإلهة الشمس (أماتيراسو). وكان (سوسانو) معبودا كريها بعض الشيء، وعنصرا مزعجا في مملكة الآلهة اليابانية. نتيجة لمزاجه السيء،

47- هذه القصة جزء من الكوجيكي الشهيرة أو سجلات الأمور القديمة (ترجمها عن اليابانية باسيل هول تشامبرلين عام 1882). أما التراث الشفهي القديم فقد أملته عام 712 امرأة عجوز كانت تعرف القصة كلها عن ظهر غيب وأنها بأمر الامبراطورة جيميو التي أمرت بتدوينها.

كان كثيرا ما ينتج عن سلوكه أفعال قاسية وشريرة. في ذروة سورات غضبه كان بإمكانه أن يُذوي خضرة الجبال الجميلة، ويُنهي حياة الناس بلا سبب.

انزعج والداه، الإلهان الخالقان (إيزاناجي) و(إيزانامي)، من أفعاله؛ فقررا أن ينفيا هذا الابن الحرون إلى (أرض يُومي السفلية). لكن قبل مغادرته للأبد، طلب الابن أن يزور أخته الأكبر، إلهة الشمس، في (وادي السماء العالية). تم قبول طلبه وصعد (سوسانو) إلى السماء. تسببت حركته في اضطراب هائل للبحر، وتصاعدت أنَّات عالية من التلال والجبال.

عندما سمعت (أماتيراسو) هذه الضجة، فهمت أن أخاها الشرير (سوسانو) يقترب. هل كان أخوها الأصغر قادما بنوايا طيبة، أم هل كان يريد أن يسلب منها مملكتها؟ عقدت (أماتيراسو) شعرها وعلقت فيه الجواهر ووضعت حول معصمها «سلسلة جليلة بها خمسة آلاف جوهرة من جواهر ياساكا». بدت مهيبة للغاية بـ «جعبة بها ألف سهم وجعبة بها خمسمائة سهم». لماذا كان ينبغي أن يأتي على أي حال؟ ومع ذلك، أخبرها أخوها أنه ليس لديه أي نوايا سيئة: كان قد اجتاز السحاب والضباب سيرا على قدميه ليأتي ويرى أخته الأكبر قبل أن يغادر إلى أرض يومي، طاعةً لوالديه. إذن، لماذا ينبغي على أخته الأكبر أن تكون مرتابة إلى هذا الحد؟ نظرت إليه (أماتيراسو) بنوع من الشك، وكانت على حق؛ كما تبين بعد ذلك بقليل.

ذات يوم عندما رأى أخته في (قاعة النسيج) المقدسة، تنسج ثياب الآلهة، سلخ حصانا وصنع حفرة عبر الأرضية وألقى فيها الحيوان. ارتعبت واحدة من النسَّاجات الإلهيات بشدة حتى أنها جرحت دون قصد أعضاءها الجنسية بالمكوك، وماتت. غضبت (أماتيراسو) للغاية حتى أنها قررت أن تترك مسكنها؛ فجمعت أرديتها المشعة حولها، ودخلت كهفا، وسدت المدخل بصخرة للتأمين، وسكنت هناك مختبأة في عزلة. تسيَّد الظلام والليل على العالم. لم يعد هناك أي ضوء للنهار. كارثة مخيفة كانت لتصبح نهاية كل شيء. ماذا كان يمكن أن يجري؟

اجتمع الثمانية مليون إله في مجرى (نهر السماء) الجاف بالفعل لمناقشة كيفية إقناع (أماتيراسو) بإظهار نفسها، وأن تكرم السماء مرة أخرى بجلالها الوضَّاء. بعد مناقشات مطولة وتفكير عميق جمعوا عددا من الطيور الشادية من (الأرض الأبدية) وأمروها أن تشدو بأغنياتها الخالدة. وبعد عدد من قراءات الطالع، صنعت الآلهة أدوات ومنافخ وكورات حدادة مختلفة. وصنعوا مرآة من النجوم الملتحمة، ومجوهرات بديعة، وآلات موسيقية.

وأخيرا نزل الثمانية مليون إله إلى الكهف الذي خبأت إلهة الشمس نفسها فيه، وهناك شرعوا في إقامة حفل ترفيهي خاص. فعلقوا المجوهرات النفيسة على الأغصان العليا لشجرة ساكاكي الأصلية، ووضعوا المرآة على الغصون الوسطى، وهدايا من نسيج مهدئ أبيض وأزرق على الغصون السفلى. وكانت افتتاحية

الحفل هي غناء الطيور الرائع. ثم أمسكت (أوزومي)، «المنذرة الإلهية»، في يدها برمح متوَّج بعشب يولاليا، وصنعت غطاء رأس من نبات متسلق، وأمسكت في يديها باقة من أوراق البامبو. ثم قلبت حوض استحمام على وجهه، وجعلته يقعقع ويدمدم عندما بدأت الرقص عليه. وإذ تلبستها الروح الإلهية، أخرجت ثدييها وأنزلت فستانها إلى حد الكشف عن أعضائها التناسلية. وجعل هذا الثمانية مليون إله يهدرون بالضحك.

أخيرا استيقظ فضول (أماتيراسو)، وبمجرد أن فتحت باب الكهف بشكل موارب، خرج نورها الإلهي. وبمجرد أن تقدمت قليلا، أخذ (تاجيكاراو)، إله القوة، يدها وجعلها تظهر كلها.

على الفور جاء ضوء الشمس ساطعا من السماء، واستنارت (الأرض الوسطى لسهل القصب) من جديد. وقرر الثمانية مليون إله الحكم على الإله (سوسانو) بدفع فدية قدرها ألف طاولة مليئة بالأشياء. وقصوا شاربه ولحيته، وخلعوا أظافر يديه وقدميه، قبل أن يعاقبوه وينفوه إلى (أرض يومي).

هكذا تم تجنب نهاية كارثية للبشرية في الوقت المناسب.


قصص عن النهاية الآتية

آسيا

18. مانو والسمكة (الهندية، الهند)

تعلن هذه القصة النهاية القادمة، وتصف العلامات السابقة عليها، وتعد بزمان بدء جديد مع مانو نفسه. القصة الأصلية لأسطورة الطوفان التي تنقذ فيها سمكة مانو يتم توسيعها هنا إلى سمكة تشارك في يوم النهاية وينقذ مانو نفسه وكل المخلوقات الحية.

في قديم الزمان كان هناك ملك اسمه (مانو)، ابن الشمس، مارس الزهد بصبر ودأب. وقد وُهب كل مميزات الروح، وكانت رباطة جأشه في الفرح والحزن كاملة، وحقق أعلى شكل لليوجا في مكان منعزل في المالايا. وبعد أن مرت مليون سنة، كان (براهما) الجالس على زهرة لوتس راضيا للغاية حتى أنه عرض على (مانو) أن يختار أي نعمة. انحنى الملك للجَدِّ وقال: «هناك نعمة واحدة أتمناها منك. أتمنى أن أكون قادرا على حماية كل الكائنات، سواء المتحركة أو الساكنة، عندما يحل الفناء.» وافق روح الكون على هذا واختفى. ثم أرسلت الآلهة مطرا هائلا من

الزهور نزل من السماء.

وذات يوم بينما كان (مانو) يغتسل، مد يده داخل إبريق الماء، وأمسكت يداه بسمكة صغيرة لامعة مع الماء. ممتلئًا بالرحمة اعتنى بالسمكة ووضعها في وعاء مليء بالماء. بعد يوم وليلة نمت السمكة مقدار ستة عشر إصبعا، وصرخت: «أيها الملك، انقذني، انقذني!» فرمى السمكة في إبريق كبير، حيث نمت مقدار ثلاث أيادي خلال ليلة واحدة. مرة أخرى ولولت السمكة في يأس: «انقذني، انقذني. أنا في حاجة إلى ملجأ منك.» فرمى (مانو) السمكة في نهر الجانج حيث استمرت في النمو، وفي النهاية جلبها سيد الأرض إلى المحيط.

عندما تمددت السمكة عبر المحيط كله في الأخير، شعر (مانو) بالخوف، وتساءل: «من أنت؟ هل أنت كبير الشياطين؟ أم هل أنت ڤاسوديــڤا، ابن كريشنا؟ من غير ذلك يمكن أن تكون؟ من يمكن أن ينمو جسده إلى هذه الأبعاد الهائلة؟ نعم، لقد تعرفت عليك في شكل السمكة، أنت يا ذا الشعر الطويل، لكنك ترهقني، يا سيد الحواس، يا سيد الكون.»

«مرحى، مرحى! لقد تعرفت عليَّ..» قال الرب (ڤيشنو) الذي كان قد اتخذ هيئة سمكة. «وقد حافظت على عهدك دونما نقصان. قريبا سيحل الطوفان على الأرض وستغرق كل جبالها وأشجارها وبيوتها. لقد شكلت هذا المركب جميع الآلهة لحماية كل الأرواح الحية العظيمة، يا سيد الأرض. هؤلاء المولودون من العَرَق،

وهؤلاء المولودون من البيض، أو من الماء، وكل المخلوقات التي تسلخ جلودها – ضعهم جميعا في هذا المركب وانقذهم، لأنه ليس لديهم أحد ليحميهم. وعندما تحطم الرياح المركب في نهاية العصر، اربطه عندئذ في قرني هذا، أيها الملك، يا سيد الملوك. وعند نهاية الفناء، ستكون سيد المخلوقات، المتحركة والساكنة. وفي بداية عصر الحقيقة، ستكون الملك الثابت والمحيط بكل شيء علما، السيد الأعلى لحقبة (مانو)، وستكون معبودا حتى من الآلهة.»

عندئذ تساءل (مانو): «يا سيدي، كم سنة سيدوم الدمار؟ وكيف سأتمكن من حماية الخلق؟ وكيف سأتحد بك مرة أخرى؟» أجابت السمكة: «من اليوم، سيحل جفاف على الأرض. سيدوم مائة عام. سيشح الطعام ويعم البلاء. ستدمر بعض الأشعة القاسية المخلوقات القليلة الباقية، وسبعة مرات ستمطر سبعةُ أشعة جمراتٍ ساخنة. وفي نهاية العصر ستتحول نار الفَرَس الغوَّاصة[48] إلى نار سامة، تندفع من فمها خارجة من الجحيم. وستصعد نار من العين الثالثة لرأس بهاڤا (الوجود)، نار حارقة ستندلع وتؤجج الكون الثلاثي. ستحترق الأرض بأكملها وتغدو رمادا، وسترتفع درجة حرارة السماء بفعل البخار. بعدها سيفنى الكون كله تماما بآلهته ومجموعات نجومه. ستغمر سحب يوم

48- في القصة الأسطورية للإله شيڤا ثمة إشارة لفرس تتجول أسفل مياه المحيط وتنفث نارا. (المترجم)

الدينونة السبع الأرض، تلك السحب المتولدة من عرق الإله (آجني)، والأكوان الثلاثة كلها ستغدو محيطا واحدا فقط.

عندئذ ستصعد على متن هذا المركب ومعك أرواح وبذور كل المخلوقات الحية، وستهجم على الحبل كما علمتك، ستربط المركب إلى قرني، وستحميك جلالتي. بعد أن تحترق حتى الآلهة، ستبقى أنت وحدك. عندما يصبح الكل محيطا واحدا، سيبقى معك القمر والشمس وبراهما وأنا خلال فترة الدمار.»

ثم تلاشى الإله، وحتى أتى الطوفان الأخير المتوقَّع ظل (مانو) يتدرب على طريقة ربط الحبل التي علمه إياها (فيشنو). وعندما حان أوان الطوفان، ظهر (فيشنو) في هيئة سمكة ذات قرن، وجاءت أفعى على شكل حبل إلى جانب (مانو). جمع الحكيم (مانو) كل المخلوقات ووضعها على المركب، وربط المركب إلى قرن السمكة بالحبل الذي كان أفعى. وتتبُّع الحبل متجها نحو (فيشنو)، وخرَّ ساجدا بخشوع أمامه.

آسيا

19. مايتريا (التبت، كوريا، منغوليا)

مايتريا الذي سيظهر خلال حوالي 30.000 سنة موجود في سماء توشيتا ينتظر ولادته الأخيرة من جديد. يعود أصل اسمه إلى كلمة «ميترا» التي تعني «صديق». الصداقة واحدة من الفضائل البوذية الأساسية، مماثلة للمحبة في المسيحية. على نحو استثنائي لن تأتي أي كارثة بل سيأتي الإشراق.

في المستقبل ستحدث تغيرات هائلة في العالم. يوما ما سيجف المحيط جزئيا، حتى أن شبه القارة الهندية ستغدو أكبر وأكثر تسطحا مما هي عليه الآن. هكذا ستصبح شبه القارة كبيرة بما يكفي لكل الناس في العالم، وسيكون هناك طعام وفير للجميع. يوما ما سيكون البشر، الذين لطالما كانوا أعداء، فجأة متوادين تجاه بعضهم البعض. سيصبح المرض والحرب من الأشياء التي عفا عليها الزمن، وسيعيش الناس لأعمار متقدمة جدا، حتى أنهم لن يتزوجوا قبل المائة والخمسين، وسيعيشون ما يقرب من 500 عام.

وسيكون هناك حاكم واحد: (شانخا)، الذي سينشر دارما بوذا

كشريعة في العالم كله. وخلال حكم (شانخا)، سيولد (مايتريا)؛ بوذا المستقبل. ستكون أمه حاملا فيه لمدة عشرة أشهر وبعد ذلك سيخرج من رحمها نظيفا تماما. عند ميلاده سيعلن أن هذا هو ميلاده الأخير – لا ينتظره إلا النرفانا، الإشراق الأسمى. وكما فعل (شاكياموني) أو (جوتاما بوذا) من قبله، يتأمل (مايتريا) في طبيعة الأشياء ويرى الجانب الزائف من الحياة الفانية. بعد ذلك سيكون لديه أربعة وثمانين ألف مُريد يخدمونه طوال الوقت. ثم من السماء سيُعلن (براهما)، الإله الخالد، صدق الدارما.

سيشهد ذلك الزمان نهاية كل الأنانية وكل الأوهام. ستصبح فكرة المِلكية لا محل لها، وسيهتم الجميع بالوصول إلى حالة الإشراق. لن يتبع الناس أهواءهم بعد ذلك، بل سيعيشون حياة العفة، مثلما يفعل الرهبان الآن. وباعتبار أعمار الناس الطويلة لن تكون هناك حاجة للذرية بعد الآن.

في هذا المحيط من التجانس التام سيقوم (مايتريا) بالوعظ لمدة تزيد على ستين ألف عام، قبل أن يغادر الأرض ليذهب إلى حالة النرفانا خاصته، في اتحاد مطلق مع الرب. سيسود الدارما، القانون الأبدي، لعشرة آلاف عام أخرى، وسيحقق كل الناس النرفانا.

سيتحرر الجميع من المعاناة والألم، وستزول كل العقبات الحائلة دون فهم الناس للدارما. بعد ذلك، وعند نهاية العشرة آلاف عام، سيجيء (براهما) نفسه ويُعلِّم الحقيقة الكونية مباشرة للجنس البشري، وسيكشف عندئذ أشياء مخفية حتى عن كل بوذا.

آسيا

20. الصالحون والطالحون (الفارسية، إيران)

المؤمن بالإيمان الحق يسأل أهورامزدا الرب الحكيم:

أيا أهورامزدا، بالنسبة للحاضر والآتي،
هل يمكنني أن أسألك كيف سيتم التعامل مع الصالحين،
عند الحساب الأخير، وكيف سيكون حال الطالحين؟

يجيب أهورامزدا الإله الحكيم:

أيها المؤمن بالإيمان الحق،
لا تستمع إلى أتباع الإيمان الشرير،
فقط الصالحون هم من سينجون من الدمار والظلام.

سيرسل الإله الحكيم ثلاثة مُخلّصين إلى الأرض قبل الانتصار النهائي للخير على الشر، الحساب الأخير، وبعث الموتى. أولا، في عصر يُسمى (عصر الحديد)، ستهاجم الأرضَ شياطين عديمة الرحمة ولن تُبقي أحدا. وسيجعلون المؤمنين يتعذبون بدلا

من قتلهم. سيخفت ضوء الشمس والقمر ويسود الظلام قبل أن يبشر وابل من النجوم بميلاد (أنشيدار)، المُخلّص الأول، وبطل المؤمنين الصادقين.

ستستحم عذراء في الخامسة عشر من عمرها في بحيرة مقدسة في إيران، بحيرة خصبتها معجزة بمنيّ النبي (زرادشت). هذه العذراء ستحمل بالطفل (أنشيدار). بعد ثلاثين عاما ستقف الشمس بلا حراك في السماء وتُبقي وقت الظهيرة على وضعه لمدة عشرة أيام. عند نهاية هذا النذير السماوي، سيلتقي (أنشيدار) بالملائكة ويعود إلى الأرض ليعظ الصالحين ويحض الجنس البشري على محاربة الشر. عند نهاية هذا الوقت سيغادر (أنشيدار) الأرض وهي أفضل حالا مما وجدها عليه. لن يموت الناس بعدها مصابين بأمراض تُلحقها بهم الشياطين، سيموتون فقط نتيجة التقدم في العمر أو الحوادث أو القتل. سيتم كبح جماح الشر، لكنه لن يُقهر.

بعد ألف عام، سيشتد الشر، وسيعاني الجنس البشري من بلاء نسيه منذ زمن بعيد. سيظهر فجأة الألم والمرض والحرب والجوع. ومرة أخرى، ستستحم عذراء في الخامسة عشر من عمرها في البحيرة المقدسة. وستغدو حبلى، وتلد (أوشيدارماه). ومرة أخرى، ستبقى الشمس في وضع الظهيرة عندما يبلغ (أوشيدارماه)، هذا المُخلّص الثاني، عامه الثلاثين. لكن هذه المرة ستظل الشمس في وضع الظهيرة لمدة ستة أيام فقط.

وسيتم كبح جماح الشر من جديد، لكنه لن يُقهر كليةً. وفي نهاية هذه الفترة، سيكف الناس عن أكل اللحم؛ وكنباتيين سيكونون أقل عدوانية.

خلال فترة بقاء (أوشيدارماه) على الأرض، سيستيقظ (أزهيداهاكا) تنين الشر النائم في كهف، وسيخيف الأرض ويقتل ثلث البشر والحيوانات جميعا. لكن الرب سيبعث (كيريساسبا) بطل الفُرس القديم حيًا من جديد، وسيذبح هذا الوحش، حيث سيتغلب الخير على الشر من جديد، لكن بشكل مؤقت.

بعد ألف سنة سيظهر المُخلّص الثالث والأخير. اسمه (ساوشيانت)، الرجل الذي يأتي بالخير. وسيعلن حكم الإله الحكيم على كل الأشياء دون منازع. وسيعلن الحساب الأخير للأحياء والأموات. سيولد (ساوشيانت) من عذراء بنفس الطريقة التي وُلد بها المُخلّصان الأوليان. سيعرفه العالم باعتباره بطل الخير العظيم على الأرض. وسيجتاح الأرض طوفان هائل من المعدن المذاب. سيقتل هذا الطوفان الأشرار الذين سيعانون ألما رهيبا، بينما سيمر به الصالحون كما لو كان حمّاما دافئا منعشا.

بعد هذا التطهير للأرض، سيجيء الحساب الأخير. سيجمع (ساوشيانت) بين أجساد وأرواح كل من عاشوا على الأرض وسيبعثهم جميعا أحياء. بعد ذلك سيظهر الإله الحكيم محاطا بالملائكة من السماوات. سينعكس نوره على الصالحين الذين سيضيئون مثل الشمس، بينما سيوصم الأشرار بدنس أفعالهم.

وسيُودَع البشر الأشرار و(أهريمان)، إله الشر، في الجحيم إلى الأبد. بوجود الإله الحكيم كحاكم بلا منازع للكون، سينقطع كل الموت والمرض والألم للأبد. سيعيد خلق الأرض وسيستمتع المباركون بالحياة الأبدية في فردوس جديد.[49]

49- Bierlein 239-241.

أوروبا

21. راجناروك (النوردية، أيسلندا)

نهاية العالم موضوع رئيسي في (ڤولوسباو)؛ وهي قصة تراجيدية ليس فيها شيء خالد حتى الآلهة. يمثل (لوكي) الشر. وقد سمحت الآلهة لهذه الروح بالوجود وسطها لوقت طويل جدا؛ وبعد فوات الأوان أدركت كم كان شريرا. وبعد فوات الأوان قامت بنفيه إلى الأرض حيث جعل تأثيره القاتل من البشر أشرارا أيضا. ولأن (أودين) الإله الأعلى قامر بإحدى عينيه في مقابل شربة من منبع الحياة يمتلكها العملاق (ميمير)، فقد عرف أن دمار العالم، بما في ذلك هو نفسه والآلهة الأخرى، كان شيئا لا مفر منه. ويتم الإعلان عن بداية النهاية بعلامات من الطبيعة تسبق اليوم الذي سينتهي فيه العالم بأسره، بآلهته وخلقه الفانين، في راجناروك؛ غسق الآلهة.

تبدأ العلامة الأولى بـ (فيمبولـڤيتر)؛ أبرد وأطول شتاء شهدته الأرض، في الحقيقة هو ثلاثة شتاءات ليس بينها أي صيف. في ذلك الوقت سيسقط ثلج باهر من جميع الاتجاهات. سيكون الجو قارس البرودة ومتجمدا وستنفذ الرياح إلى النخاع.

لن تكون الشمس قادرة على السطوع أو على أن تجلب الدفء. وسيشتبك الناس في كل مكان في العالم في معارك رهيبة لمدة ثلاث سنوات. سيسود الشر والعنف. ولأجل الفوز سيذبح الإخوةُ الإخوةَ، ولن يُبقي الآباء على أبنائهم ولا الأبناء على آبائهم. هذا الزمن، قبل أن يفنى العالم، سيكون زمن سفاح القربى، زمن البلطة، زمن السيف، زمن الريح والذئب.

ستلتهم الذئاب الشمس والقمر، سيتدفق الدم فوق السماوات ويملأ الهواء، وستختفي النجوم. بعد ذلك ستتزلزل الأرض كلها أكثر من أي زلزال حدث من قبل، وتسقط الجبال، وتُقتلع الأشجار. كل رباط سينكسر، وكل سلسلة ستنفك. وسيتدفق البحر ليغطي الأرض في موجات هائلة، بينما أفعوان (ميدجارد) الذي يحيط الأرض وذيله في فمه يتلوى غضبا ويريد أن يخرج على البرَّ. سيتحرر الذئب (فينرير) بفم واسع مفتوح: سيحتك فكه العلوي بقبة السماء ويلمس فكه السفلي الأرض. ستلتمع النيران من منخريه وعينيه. وسيبُخّ أفعوان (ميدجارد) الكثير من السم حتى أنه سيتطاير ليملأ السماء والبحر، ياله من منظر رهيب تخشاه العيون. ووسط كل هذه الضجة ستتمزق السماء إربًا. عندئذ سيظهر (لوكي) وأبناء (موسبلهايم) – الأقزام – وعندما يمتطون جسر قوس قزح، سينكسر. سيشق أبناء (موسبل) طريقهم إلى سهول (ڤيجريد) حيث سيقابلهم الذئب (فينرير) بفكيه المفغورين وأفعوان (ميدجارد). معًا سيهاجمون الآلهة ويتركون خلفهم ذيلا من النار التي ستدمر الأرض. سيذبح (ثُور) إله الرعد

أفعوان (ميدجارد)، لكن في لحظاته الأخيرة سيبُخّ الأفعوان السم وسيسقط (ثور) ميتا. سيصب (سورت) قائد الجيوش النار على الأرض ويحرق كل وأي شيء. سيُقتَل (أودين) نفسه، وكل الآلهة الأخر ستُقتل أيضا، لكن لن ينجو أي واحد من أعدائهم كذلك.

لدى رؤية (سيبيل) هذا كي تقوله:

تغدو الشمس سوداء

وقد انتُزعت النجوم المتلألئة من السماء

تغرق الأرض في البحر

تحتدم النار والدخان

يطقطق اللهيب وتعلو ألسنته الحارقة حتى تلعق السماء

وتصطدم بقبة الملكوت

ستكون حربا بلا فائزين أو خاسرين، سيهلك فيها كل المحاربين وتُدمَّر فيها كل الأشياء.

لكن عند ذاك، ماذا سيحدث بعدها، عندما تحترق السماء والأرض والعالم بأسره، وجميع الآلهة وجميع محاربي (أودين) والجنس البشري كله؟ هل ستكون هناك آلهة مازالت حية، هل ستكون هناك مازالت أرض أو سماء؟

بعد أن يكون (سورت) قد أحرق العالم، ويكون العالم قد دُمّر تماما، سيكون (ألفادور) «أب الجميع» الخالد، الرب الأعلى من

كل الآلهة، هو الوحيد الباقي. سيشكل أرضا جديدة بمخلوقات جديدة. وسيكون هناك كائنان بشريان مختبئان في (يجدراسيل): شجرة الحياة، هما (ليف) و(ليفثراسير). وسيتكوّن طعامهما من ندى الصباح. سيبدآن الجنس البشري من جديد، وسيكون لهما أطفال كثيرون حتى أنهم سيعمرون العالم بأسره.[50]

50- Ragnarok In:The Prose Edda by Snorri Sturluson. (Translated from the Icelandic with an Introduction by Arthur Gilchrist Brodeur). New York: The American-Scandinavian Foundation/London: Oxford UP 1929; Die Voluspa / hrsg. und erkl. von Ferd. Detter. Wien: Philosophisch-historische Klasse 1899; John Lindow, Handbook of Norse Mythology. Santa Barbara/Denver/Oxford: ABC CLIO 2001; J.F. Bierlein, Parallel Myths. New York: Ballantine Books 1994: 246-248 Penelope Farmer); H.R. Ellis Davidson, Scandinavian Mythology. London: Hamlyn 1969.

أفريقيا

22. شمس يأكل أبناءه (الفانج، الجابون)

في البدء كان (شمس) و(قمر) زوجا وزوجة، وكانت النجوم أطفالهما. كانوا يأكلون طعاما مختلفا عمًا نأكله؛ إذ كانوا يأكلون النار، وهذا هو السبب في أن العائلة كلها كانت تشع بالضوء وتشارك ضوءها بكرم معنا على الأرض.

لكن بعد ذلك، وذات يوم، جاء شاب إلى القرية، كان وسيما جدا حتى أن الحب اشتعل في قلب (قمر) بمجرد أن رأته. وكعلامة على حبها المتقد أعطته أمارة وهمست: «انتظرني عند منحنى الطريق، وبعدها سنفرّ سويا للأبد.»

بمجرد أن لاحظ (شمس) غياب (قمر)، سأل أطفاله النجوم: «أين هي؟» ولم تكن عندهم فكرة. لكنه استمر يسأل: «أين هي؟» ولم يكونوا يعرفون بالفعل. «لا بد أنكم ساعدتموها على الهروب..» أكمل، وبدأ يشع بغضب شديد حتى أن النجوم هربت بعيدا عنه. وبدأ (شمس) يطاردهم، وفي كل مرة يمسك فيها بنجم كان يلتهمه، بالرغم من أنه كان طفله، ولم تسطع هذه النجوم أبدا من جديد. لكن بقيتهم كانوا متناثرين أكثر من اللازم وكان

عددهم أكبر من أن يمسك بهم ويأكلهم جميعا.

كل يوم يستمر (شمس) في مطاردة زوجته (قمر) وأطفاله النجوم عبر السماء. ومن وقت لآخر يأكل نجما آخر. في تلك الأثناء تبذل الأم (قمر) أقصى جهدها كي تحمي أطفالها. فتحذرهم عندما يصعد (شمس) وتأخذهم معها إلى مخبئها.

ستستمر هذه المطاردة لزمن طويل طويل. قبل أن تبلغ نهايتها يوما ما. ومجيء ذلك اليوم يعتمد علينا. نعم، علينا نحن، البشر الذين سيأتون به. لا بد أن نناصر حكم الخير على الأرض. وإذا لم نفعل، ويسود الشر بدلا منه، سنضيع إذن. وبمجرد أن يسيطر الشر على الأمور، سيمسك (شمس) بزوجته (قمر) أخيرًا.

لا، لن يلتهمها، سيحبسها في خندق عميق في مركز الأرض ولن يسمح لها أبدا أن تطلع من جديد. أما بالنسبة للنجوم، أطفالها؛ فإن أباهم، (شمس)، سرعان ما سيمسك بهم ويأكلهم، كلهم.

«وماذا سيحدث لنا؟»

«من يعرف؟ لا أحد كما أعتقد. على الأقل، أنا لا أعرف.»

أمريكا الهندية

في بعض قصص الهنود الأمريكيين لا توجد أي إشارة إلى بدايات جديدة على الإطلاق، بينما تعلن قصص أخرى عن إعادة الخلق أو مجيء عصر جديد.

23. ماذا سيحدث؟ (مايا، أمريكا الوسطى)

في بداية كل عصر يتم خلق العالم وإعماره بالناس، وكل عصر لا بد أن يبلغ نهايةً في الأخير. فيما مضى تحوَّل كل عالم إلى الشر وتم تدميره، وهكذا يجرى لعالمنا في المستقبل. ماذا سيحدث؟ ستمتد أفعى المطر عبر السماء وتقذف من جوفها سيولا من الماء، وستتدفق من الشمس والقمر فيضانات هائلة. الربة العجوز تنتظر، بمخالبها: مخالب النمر، والعظمتان المتقاطعتان: رمز الموت تزينان تنورتها، وعلى رأسها تاج من الثعابين الحية الملتوية. ستوقف الماء لوهلة، لكن الإله الأسود بعد ذلك سيكون مستعدا لإهلاكنا جميعا. سيخرج وعلى رأسه المخيف تجلس بومة تصرخ في غضب.[51]

51- Farmer 126-127

أمريكا الهندية

24. نهاية كل شيء (زينجو، البرازيل)

في النهاية عرض (سينآ) على الزائر عصا ضخمة ذات رأس متشعبة تمسك بالسماء، وقال: «في اليوم الذي سيفنى فيه شعبنا تماما، سأجذب هذه العصا، وعندئذ ستنهار السماء، بحيث أن كل الشعوب ستختفي. وستكون تلك هي نهاية كل شيء.»[52]

52- Villas Boas 211

أمريكا الهندية

25. الجلد المتشقق (شيروكي، أوكلاهوما)

الأرض مثل جزيرة كبيرة تطفو على المياه. ترفعها قطعة جلد غير مدبوغ من أطراف البوصلة الأربعة. وقد ثُبتت قطعة الجلد هذه إلى سقف من حجر الكريستال عاليا في السماوات. عاجلا أو آجلا ستتشيخ قطعة الجلد تلك وتتشقق، وفي النهاية ستنكسر. وستعود الأرض غائصة تحت المياه، بحيث أن الحياة كلها ستنتهي. لكن ساعتها، بالتأكيد، وكما فعل في المرة السابقة؛ سيجذب الخالق الأرض مخرجا إياها من الماء، وسيعيد خلق العالم.[53]

53- Bierlein 249 and other sources

أمريكا الهندية

26. آخر شعرات الجاموس (باوني، نبراسكا)

(تيراوا أتيوس)، رب كل شيء، يحدد المصير. عند بدء العالم وضع فحل جاموس كبير في السماء إلى أقصى الشمال الغربي. مع مرور كل عام، يفقد الفحل شعرة؛ وعندما تذهب كل شعراته، سينتهي العالم. ستكون هناك زخات شهب على نطاق واسع، وستصبح الشمس والقمر معتمين. في البدء، حدد (تيراوا أتيوس) نجم الشمال ونجم الجنوب كي يتحكما في المصير. نجم الجنوب يتحرك إلى الشمال قليلا مع كل عام يمر. وعندما يلحق بنجم الشمال، سيهلك العالم ويبلغ نهايته. ستسقط النجوم التي في السماء على الأرض الجديدة وتصبح ناسًا. والناس الباقون في هذا العالم زمنَ الدمار سيطيرون عاليا في السماء وسيصبحون نجوما هم أنفسهم.[54]

54- Bierlein 248, and other sources

القرآن الكريم

27. القارعة (العربية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَارِعَةُ! مَا الْقَارِعَةُ؟

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ؟

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ،

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ.

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ؛

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ؟

نَارٌ حَامِيَةٌ.

القرآن الكريم

28. النهاية (العربية)

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا، وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً. فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ: مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ! وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ: مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ! وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ: أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ. عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا «سَلَامًا، سَلَامًا».

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ: مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ! فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ، وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ. إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ – ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ.

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ، مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ! فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ. وَكَانُوا يَقُولُونَ: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟

[...]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ. «بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ: جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.»

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا: «انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ.» قِيلَ: «ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا.» فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ؛ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ: «أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟» قَالُوا: «بَلَى، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ، وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مَأْوَاكُمُ النَّارُ، هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.»[55]

55- من سورة الواقعة الآيات 48-4 . ومن سورة الحديد الآيات 15-12

الكتاب المقدس

29. كيف سينتهي كل ذلك؟ (العبرية)

يجلس دانيال على ضفة نهر دجلة وتحدث له رؤيا النهاية، فيظهر له رجل يلبس رداء من الكتان ونطاقا من الذهب. جسمه كالزبرجد، ووجهه كالبرق، وعيناه كمصباحي نار. ذراعاه وقدماه كالنحاس المصقول وصوت كلامه قوي كصوت جمهور من الناس ويتوجه بالحديث إلى النبي دانيال.

«وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمانُ ضِيقٍ لم يكن منذ كانت أمةٌ إلى ذلك الوقت. وفي ذلك الوقت يُنجَّى شعبك – كل من يوجد مكتوبا في السفر. وكثيرون من الراقدين في تراب الارض يستيقظون: هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار.. للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجَلَد[56]، والذين رَدُّوا كثيرين إلى البِرِّ كالكواكب إلى أبد الدهور. أما أنت يا دانيال فأخفِ الكلام واختم السِّفر إلى

56- وجه السماء المنظور القبة الزرقاء (معجم الكلمات الصعبة للعهد القديم). الكتاب المقدس طبعة دار الكتاب المقدس بمصر 2008 (المترجم)

وقت النهاية. كثيرون يتصفحونه والمعرفة تزداد.»

فنظرتُ، أنا دانيال، وإذا باثنين آخرين قد وقفا؛ واحد من هنا على شاطئ النهر، وآخر من هناك على شاطئ النهر. وقال للرجل اللابس الكتان، الذي من فوق مياه النهر: «إلى متى انتهاء العجائب؟» فسمعت الرجل اللابس الكتان الذي من فوق مياه النهر إذ رفع يمناه و يسراه نحو السماوات، وحلف بالحي إلى الأبد أنه إلى زمان وزمانين ونصف[57]. فإذا تم تفريق أيدي الشعب المقدس تتم كل هذه. وأنا سمعت وما فهمت. فقلت: «يا سيدي، ما هي آخر هذه؟»

فقال: «اذهب يا دانيال، لأن الكلمات مَخفيَّةٌ ومختومة إلى وقت النهاية. كثيرون يتطهرون ويُبيَّضُون ويُمحَّصُون، أما الأشرار فيفعلون شرًّا. ولا يفهم أحدُ الأشرار، لكن الفاهمون يفهمون. ومن وقت إزالة المُحرَقَة الدائمة وإقامة رجس المُخرِّب ألفٌ ومئتان وتسعون يوما. طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى الألف والثلاث مئة والخمسة والثلاثين يوما. أما أنت فاذهب إلى النهاية فتستريح، وتقوم لقُرعتك في نهاية الأيام.»

57- عام وعامين ونصف - المصدر السابق (المترجم)

الكتاب المقدس

30. سماء جديدة وأرض جديدة (اليونانية)

ثم رأيت عرشًا عظيما أبيض، والجالس عليه، الذي من وجهه هربت الأرض والسماء، ولم يوجد لهما موضعٌ! ورأيت الأموات صغارا وكبارا واقفين أمام الله، وانفتحت أسفارٌ. وانفتح سِفرٌ آخر هو سِفر الحياة. ودِينَ الأمواتُ مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم. وسلَّم البحر الأموات الذين فيه، وسلَّم الموتُ والهاويةُ الأموات الذين فيهما. ودِينوا كل واحد بحسب أعماله. وطُرِحَ الموت والهاوية في بحيرة النار. هذا هو الموت الثاني. وكل من لم يوجد مكتوبا في سفر الحياة طُرِحَ في بحيرة النار.

ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا، والبحر لا يوجد فيما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مُزيَّنة لرجلها. وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا: «هو ذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعبا، والله نفسه يكون معهم إلها لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت.»

وقال الجالس على العرش: «ها أنا أصنع كل شيء جديدا!».
وقال لي: «اكتب، فإن هذه الأقوال صادقة وأمينة.» ثم قال لي:
«قد تمَّ! أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية. أنا أعطي العطشان
من ينبوع ماء الحياة مجانا. من يغلب يرث كل شيء، وأكون له
إلها وهو يكون لي ابنا. وأما الخائفون وغير المؤمنين والرَّجِسُون
والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكَذَبة فنصيبهم
في البحيرة المتقدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثاني.»

[...] وأراني (الملاك) نهرا صافيا من ماء حياة لامعا كبلور،
خارجا من عرش الله والخروف في وسط سوقها (سوق مدينة
أورشليم). وعلى النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة تصنع
اثنتي عشرة ثمرة، وتعطي كل شهر ثمرها، وورق الشجرة
لشفاء الأمم. ولا تكون لعنةٌ ما في ما بعد. وعرش الله والخروف
يكون فيها، وعبيده يخدمونه. وهم سينظرون وجهه، واسمه على
جباههم. ولا يكون ليل هناك، ولا يحتاجون إلى سراج أو نور
شمس، لأن الرب الإله ينير عليهم، وهم سيملكون إلى أبد الآبدين.

ثم قال (الملاك) لي: «هذه الأقوال أمينة وصادقة. والرب إله
الأنبياء القديسين أرسل ملاكه ليُري عبيده ما ينبغي أن يكون
سريعا.»

«ها أنا آتي سريعا! طوبى لمن يحفظ أقوال نبوة هذا الكتاب.»

وأنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع هذا. وحين سمعت ونظرت

خررت لأسجد أمام رِجلي الملاك الذي كان يريني هذا. فقال لي: «انظر لا تفعل! لأني عبدٌ معك ومع إخوتك الأنبياء، والذين يحفظون أقوال هذا الكتاب. اسجد لله!» وقال لي: «لا تختم على أقوال نبوة هذا الكتاب، لأن الوقت قريب. من يظلم فليظلم بعد. ومن هو نجس فليتنجَّس بعد. ومن هو بارٌ فليتبرر بعد. ومن هو مقدَّس فليتقدَّس بعد.»

«وها أنا آتي سريعا وأجرتي معي لأجازي كل واحد كما يكون عمله. أنا الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر.»

المصادر

ملاحظة: هذا الكتاب هو للقراء المهتمين بالموضوع، وليس للمتخصصين في فقه اللغة. بناء على المصادر والروايات والترجمات والشروح المختلفة، قمت بترجمة وتنقيح وصياغة القصص في نصوص حرة بعض الشيء. وأقصد بـ «صياغة» هنا: جعلها أكثر يُسرًا عن طريق تلخيص أو تقليل الوصف المسهب، واختيار مقاطع هامة من سرديات بالغة الطول. وفي بعض الحالات عندما تم استخدام ترجمات حرفية، تم الإشارة إلى ذلك بوضوح. وبالنسبة لهؤلاء الراغبين في الرجوع إلى النصوص الأصلية أو الترجمات الحرفية فسيجدون المراجع في ثبت المصادر أدناه. عادة ما تكون القصص الشفاهية بلا عناوين، وقد أضيفت معظم العناوين لاحقا، أو حصلت على عنوان هنا لأول مرة.

قصص عن نهايات الماضي

آسيا

1. أوتنابيشتِم (الأكدية، بلاد ما بين النهرين)

http://www.self.gutenberg.org/articles/eng/Flood_(mythology). W. F. Albright, The Babylonian Sage Ut-Napištim Rûqu. Journal of the American Oriental Society, Vol. 38 (1918), pp. 60-65. URL: http://www.jstor.org/

stable/592584. Babylonian Flood Stories (Edited by Percy Handcock). London/New York: The MacMillan Company 1921; Edmond Sollberger. The Babylonian Legend of the Flood. London: The Trustees of the British Museum 1962; L'Épopée de Gilgamesh : texte établi d'après les fragments sumériens, babyloniens, assyriens, hittites et hourites / traduit de l'arabe et adapté par Abed Azrié. Paris: Berg 1979; Jean-Daniel Forest, L'épopée de Gilgamesh et sa postérité. Introduction au langage symbolique. Paris: Méditerranée 2002. Also in Myths from Mesopotamia. Creation, The Flood, Gilgamesh, and Others. (A New Translation by Stephanie Dalley) Oxford: Oxford University Press (1989) revised Edition 2000; The Epic of Gilgamesh. The Babylonian Epic Poem and Other texts in Akkadian and Sumerian. (translated and with an introduction by Andrew George). London: Penguin Books 1999; The Epic of Gilgamesh (An English Version, with an Introduction by Nancy K. Sandars). Harmondsworth: Penguin 1962.

2. نوح (العبرية)

http://www.mechon-mamre.org/p/pt/pt0106: Genesis 6:5 to Genesis 9:18.

3. براهما والموت (الهندية، الهند) المصدر الأصلي:

Mahabharata epic (VII 52-54 and XII 256ff.), various

translations and editions; http://www.gutenberg.org/files/35736/35736.txt: Life and Death in a Hindu Myth; Le Maha-Bharata: poème épique de Krishna-Dwaipayana plus communément appelé Véda-Vyasa c'est-a-dire le compilateur et l'ordonnateur des védas / traduit complètement pour la première fois du sanscrit en français, par Hippolyte Fauche. Paris: Librairie de Benjamin Duprat 1863-1870; also in: Hindu Myths. A Source Book Translated from the Sanskrit. (With an Introduction and Notes by Wendy Doniger). London: Penguin 1973: 37-43; see also: Wendy Doniger, You can't get here from there: the logical paradox of ancient Indian creation texts. In: Markham J. Geller & Mineke Schipper (Editors), Imagining Creation. Leiden & Boston: Brill Publishers 2008:87-102.

4. من البدء إلى المنتهى (الأهومية، جنوب آسيا)

(راي ساهيب جولاب شاندرا بارو)، وهو باحث ومترجم آهومي، وجد هذه القصة وترجمها في مخطوط من عام 1894 في آسام. ونُشرت تحت عنوان: من الزمان الأول إلى نهاية الحكم الأهومي بترجمة وتحرير (راي ساهيب جولاب شاندرا بارو)، كلكتا: البعثة المعمودية 1930. انظر كذلك:

Professor Baas J. Terwiel: Ahom Myths of Origin: a Contextual and Regional Analysis, published (in German)

in: M.S. Laubscher und B. Turner (Hrsg.). Regionale Völkerkunde. Volume 2. München: Akademischer Verlag 1994:163-188.

من بين المتحدثين بالتايلاندية، فإن الآهوميين لهم وضع خاص. في القرن الحادي العشر غادر هؤلاء الناس أرض ميلادهم في مقاطعة كوانجشي الصينية، واندفعوا محتشدين ومنتشرين في كل جنوب شرق آسيا. استقر الآهوميون في شمال ميانمار. ومن هناك غزوا مناطق أخرى، مثل ولاية آسام الهندية. من الناحية السياسية كانوا ناجحين إلى حد كبير، ولكي يؤمّنوا وحدة الأرض التي سيطروا عليها، استخدموا لغة مشتركة محلية. ونتيجة لهذا تقلصت لغتهم الآهومية في النهاية لتصبح لغة دينية مقدسة. وبالفعل في القرن التاسع عشر أصبحت لغة ميتة لا يدرسها إلا كهنة الدين القديم. ومع ذلك فإن الثقافة الآهومية هامة كمصدر لفهم الثقافات التايلاندية الموجودة. مع شكري لبروفيسور د. بارند ج. تيرويل Barend J. Terwiel على المعلومات الكريمة عن النص الآهومي واللغة والثقافة الآهومية.

5. فوضى أول الزمان والمعركة بين الماء والنار (الهان، الصين)

http://www.chinaknowledge.de/History/Myth/personszhurong.html; Anthologie des mythes et légendes de la Chine ancienne. (Textes choisis, présentés, traduits et indexes par Rémi Mathieu). Paris: Gallimard 1989; Yuan Ke, Dragons and Dynasties:

An Introduction to Chinese Mythology. Selected and translated by Kim Echlin and Nie Zhixiong. New York etc.: Penguin Books, 1993:1-5 and 9-13; Lihui Yang and Deming An, with Jessica Anderson Turner, Handbook of Chinese Mythology. Santa Barbara, California: ABC Clio 2005:20-27; Mark Edward Lewis, The Flood Myths of Early China. Albany: State University of New York Press 2006.

أوروبا

6. ديوكاليون وبيرا (اليونان وروما)

P. Ovidii Nasonis Metamorphoseon libri XV. Cum versione Anglica, ad verbum, quantum fieri potuit, facta. Or, Ovid's Metamorphoses, with an English translation, as literal as possible. Done with the greatest care, and from the best editions, for the more expeditious attainment of the sense and elegancy of this great poet. By John Clarke, author of the essays upon education and study.London : Printed for J.F. and C. Rivington, St. Paul's Church-Yard; T. Longman, and T. Evans, Pater-noster-Row, (1779). Online edition, Leiden University Library.

Ovid's Metamorphoses dates back to the first century CE. See also: P. Ovidi Nasonis Metamorphoses / recognovit breviqve adnotatione critica instrvxit R.J. Tarrant. - Oxonii : e Typographeo Clarendoniano, 2004; The Metamorphoses of Ovid. Translated and with an Introduction by Mary M. Innes. Harmondsworth: Penguin Books 1955; Ovidius Metamorphosen (Dutch translation by M. d'Haene-Scheltema). Amsterdam: Atheneum-Polak & Van Gennep 1994.

7. برامزيماس (ليتوانيا)

Richard. Andree, Die Flutsagen. Braunschweig: Vieweg & Son 1891: 44; Johannes Riem, Die Sintflut in Sage und Wissenschaft. Hamburg: Agentur des Rauhen Hauses 1925:14-15; A. Stenzel, Weltschöpfung, Sintflut und Gott. Braunschweig: Bauert & Rocco, 1894:116.

أفريقيا

8. نزامي، وامبيري، ونكوّا (الفانج، الجابون)

Père Henri Trilles. Proverbes, Légendes et Contes Fang. In: Bulletin de la Société Neuchateloise de Géographie. XIV. Neuchatel 1905:130-136; G. Tessmann. Die Pangwe. Völkerkundliche Monographie eines west-

afrikanischen Negerstammes. I and II. Berlin: Ernst Wasmuth 1931.

9. البدء والفناء (تشاجا، تنزانيا)

Ch.Dundas, Kilimanjara and its People. A History of the Wachagga, Their Laws, Their Customs and Legends. Together with Some Accounts of the Highest Mountain in Africa. Londo: Frank Cas1924:108-120

الآن ونحن على علم بقصة الطوفان في الكتاب المقدس، قد نظن أن هناك تشابها بين قصة هذا الفصل والطوفان التوراتي. ولكن هناك اختلافات هامة. (دونداس) الذي أملى هذه الرواية، يؤكد على أن الناس الذين أخبروه بهذه القصة لم يكن لهم أبدا أي اتصال بالبعثات التبشيرية الغربية.

10.السماء الواقعة (هيريرو، ناميبيا)

Josaphat Hahn, Die Ovaherero. In: Zeitschrift für Erdkunde 1869:505-506

في الأصل أملى هذه القصة مبشر اسمه هوجو هانHugo Hahn (والد جوزافات هان هذا) الذي كان قد سمعها من آم Amme، وهي امرأة من الهيريرو تم تعميدها.

11. طوفان من تحت الأرض (الآباتشي، أريزونا)

Natalie Curtis, The Indians' Book. New York: Dover Publications (original edition 1907). Also in: Beginnings. Creation Myths of the World. (Compiled and Edited by Penelope Farmer). New York: Atheneum 1979:52-53.

12. نهايات مختلفة (بومو، كاليفورنيا)

Pomo Creation, original version transcribed by J. de Angelu in: Journal of American Folklore, vol. 48, 1935: 203-262; also available in: Maria Leach, The Beginning. Creation Myths Around the World . New York: Funk & Wagnalls Company 1956: 37-46; David Leeming and Jake Page, The Mythology of Native North America. Norman: The Oklahoma University Press, 112-113.

13. واتونّا (ماكيريتاري، فنزويلا)

تشارك حكاؤو القصص الشفاهية الماكيريتاريون قصصهم مع مارك دي سيفيريو في القرى الواقعة شمال نهر أورينوكو بفنزويلا. وقد حول مجموعة من كل هذه القصص المجموعة بصبر إلى سردية مستمرة عن الأسلاف السماويين. ضم كتابه

Watunna. Mitología Makiritare. (Caracas: Monte Avila Editores 1970)

نسخة جديدة، ونُشر فيما بعد بالإنجليزية:

Marc de Civrieux, Watunna. An Orinoco Creation Cycle (Edited and translated by David M. Guss). San Francisco: North Point Press 1980

وهنا قمت بجمع شذرات مختلفة في قصة واحدة.

14. جثة الحمامة (شيرينتي، بيرو)

Claude Lévi-Strauss, Mythologiques. Le cru et le cuit. Paris: Plon 1964:256-257; Beginnings. Creation Myths of the World. (Compiled and Edited by Penelope Farmer). New York: Atheneum 1979:58-59.

أوقيانوسيا

15. العقاب والنجاة (فيجي، ميلانيزيا)

Thomas Williams, Fiji and the Fijians. Volume I. London: Heylin 1858:252.

16. رواهاتو، إله المحيط (راياتيا، بولينيزيا الفرنسية)

راياتيا هي المركز السياسي والديني الأقدم للثقافة البولينيزية. تُذكرنا موجة المد المغرقة الموصوفة هنا بتسونامي مفاجئ مهول. هذه القصة، التي أملاها J.M. Orsmond في جزيرة راياتيا عام 1822، لم يتم نشرها إلا بعد قرن، والفضل في ذلك لتويرا هنري Teuira

في: Henry

Ancient Tahiti. Based on Material recorded by J.M. Orsmond (Edited by Teuira Henry). Museum Bulletin Series 48. Honolulu: Bernice P. Bishop Museum 1928.

يمكن العثور على القصة الأصلية (التي تم اختصارها وتحريرها هنا) في الصفحات 452-448. وتوجد قصة مشابهة كذلك في جزر ليوارد:

Cf. Richard Andree, Die Flutsagen. Braunschweig: Vieweg & Son 1891:64-65.

فاصل: كيف تحاشت الآلهة النهاية:

آسيا

17.أماتيراسو وسوسانو (اليابانية)

Adapted from F. Hadland Davis, Myths and Legends of Japan. London: G.G. Harrap, 1912; Nobuhiro Matsumoto. Essai sur la mythologie japonaise. Paris: Librairie Orientaliste Paul Geuthner 1928.

قصص عن النهاية الآتية

آسيا

18.مانو والسمكة (الهندية، الهند)

Hindu Myths. A Source Book Translated from the Sanskrit (With an Introduction and Notes by Wendy Doniger). London: Penguin 1973: 181-184; see also: Wendy Doniger, You can't get here from there: the logical paradox of ancient Indian creation texts. In: Markham J. Geller & Mineke Schipper (Editors), Imagining Creation. Leiden & Boston: Brill Publishers 2008 pp. 87-102; Devdutt Pattanaik, Indian Mythology. Tales, Symbols and Rituals from the Heart of the Subcontinent. Rochester Vermont: Inner Traditions 2003 .See also the Britannica Academic App:

ماتسيا (سمكة بالسنسكريتية) هي واحدة من 10 تجسدات للإله الهندوسي فيشنو. بهذه الهيئة أنقذ فيشنو العالم من طوفان كبير. أمسك مانو، الرجل الأول، بسمكة صغيرة تنامت إلى حجم عملاق. وعندما اقترب الطوفان، نجا مانو بنفسه عن طريق ربط مركبه بالقرن الموجود على رأس السمكة. وتشير بعض الروايات الأقدم إلى السمكة/المنقذ بـ «براجاباتي» (الذي تندمج شخصيته لاحقا مع شخصية براهما). أما المصادر اللاحقة فعرَّفته بأنه فيشنو.

19. مايتريا (التبت، كوريا، منغوليا)

القدوم المستقبلي لمايتريا:

http://self.gutenberg.org/articles/eng/Maitreya; Buddhist Scriptures. (Translated by Edward Conze). Harmondsworth: Penguin 1959: 238-242; Mircea Eliade, Essential Sacred Writings from Around the World. San Francisco: Harper 1977: 400-403; J.F. Bierlein, Parallel Worlds. New York: Ballantine Books 1994: 245-246.

20. الصالحون والطالحون (فارسية، إيران)

وفقا للكتاب الزرادشتي المقدس، في معركة الخير ضد الشر، ستأتي نهاية العالم عن طريق مذنّب يضرب الأرض بناره وهالته، فيصهر المعادن والجمادات وسيتدفق طوفان المعدن المغلي الناتج عن هذا فوق الأرض كالنهر.

Cf. chapter 30 of the Bundahishn: http://www.avesta.org/mp/bundahis.html#chap30; http://www.iranchamber.com/religions/articles/zoroastrian_myth_end.php; text also in J.F. Bierlein, Parallel Myths. New York: Ballantine Books 1994:239-241.

أوروبا

21. راجناروك (النوردية، أيسلندا)

The Prose Edda by Snorri Sturluson. (Translated from the Icelandic with an introduction by Arthur Gilchrist Brodeur). New York: The American-Scandinavian Foundation and London: Oxford UP 1929; Die Voluspa / hrsg. und erkl. von Ferd. Detter. Wenen: Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-historische Klasse 1899; John Lindow, Handbook of Norse Mythology. Santa Barbara/Denver/ Oxford: ABC CLIO 2001; J.F. Bierlein, Parallel Myths. New York: Ballantine Books 1994: 246-248; Beginnings. Creation Myths of the World. (Edited by Penelope Farmer). New York: Atheneum 1978: 122-126; H.R. Ellis Davidson, Scandinavian Mythology. London: Hamlyn 1969; H.A. Guerbner, Noorsche Mythen uit de Edda's en de Sagen. Zutphen: W.J. Thieme & Cie 1920.

أفريقيا

22.شمس يأكل أطفاله (الفانج، الجابون)

R.P. Trilles, Proverbes, Légendes et Contes Fang. In: Bulletin de la Société Neuchateloise de Géographie. Tome xiv; G. Tessmann, Die Pangwe. Völkerkundliche Monographie eines Westafrikanischen Negerstammes. Berlin: Ernst Wasmuth 1931. R.P. Trilles, Les Pygmées de la Forêt Equatoriale. Paris: Librairie Bloud et Gay 1932: 290-291.

أمريكا الهندية

23. ماذا سيحدث؟ (مايا، أمريكا الوسطى)

Dresden Codex Maya, Mesoamerica, compilation from Beginnings. Creation Myths of the World. (Edited by Penelope Farmer). New York: Atheneum 1979:126-127; Arias-Larreta, Abraham, Pre-Columbian Masterpieces. Popol Vuh, Apu Ollantay, Chilam Balam. Kansas City: Editorial Indoamerica 1967.

24.نهاية كل شيء (زينجو، البرازيل)

ظهرت القصة الأصلية في:

Orlando Villas-Bôas and Cláudio Villas-Bôas, Xingu:

Os Índios, Seus Mitos. Rio de Janeiro: Zahar Editores 1970:211.

25.الجلد المتشقق (شيروكي، أوكلاهوما)

Lewis Spence. The Myths of the North American Indians. London: George G. Harrap and Company 1914:260-261.

26.آخر شعرات الجاموس (باوني، نبراسكا)

في الأصل حكى Young-Bull(الثور الصغير) وهو معالج تقليدي بارز وقائد (احتفال الجاموس) هذه القصة لجورج آموس دورسي الذي نشرها في كتابه:

The Pawnee Mythology. George Amos Dorsey, Washington: Carnegie Institution of Washington 1906:134-136.

27.القرآن الكريم: الواقعة

سورة الواقعة، السورة رقم 101

(اعتمدت الكاتبة على الترجمة الإنجليزية الموجودة في:

Arthur J. Arberry. The Koran Interpreted. London/ New York/Toronto: Oxford UP 1964, and several other translations.

وتتوجه بالشكر على المعلومات العلمية للبروفيسور Jan Just Witkam من جامعة لايدن.

28.القرآن الكريم: النهاية

سورة الواقعة الآيات من 4 إلى 48، وسورة الحديد الآيات من 12 إلى 15
(اعتمدت الكاتبة على المصدر السابق)

29.الكتاب المقدس: كيف سينتهي كل هذا؟ (عبرية)

سفر دانيال، الإصحاح الثاني عشر 13-1

30.الكتاب المقدس: سماء جديدة وأرض جديدة (يونانية)

سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح 20 من 11 إلى 15، الإصحاح 21
الآية 8، الإصحاح 22 من 1 إلى 13
(اعتمدت الكاتبة على King James Version)

البيلوجرافيا:

*للبحث عن مراجع القصص، انظر القسم السابق: المصادر

* Andree, Richard. Die Flutsagen. Braunschweig: Vieweg & Son 1891.

* Bauer, Wolfgang, China und Die Hoffnung auf Glück. Paradiese, Utopien, Idealvorstellungen. München, Carl Hanser Verlag 1971.

* Beginnings. Creation Myths of the World. (Compiled and Edited by Penelope Farmer). New York: Atheneum 1979

* Buddhist Scriptures. Selected and Translated by Edward Conze. Harmondsworth: Penguin 1959.

* Doniger, Wendy, The Implied Spider. Politics and Theology in Myth. Columbia University Press 1998.

* Dundes, Alan. (Ed.) The Flood Myth. Berkeley/Los Angeles/London: University of California Press 1988.

* Elwin, Verrier. Tribal Myths of Orissa. London: Oxford University Press 1954.

* Entretiens sur la fin du monde: Jean-Claude Carrière, Jean Delumeau, Umberto Eco, Stephen Jay Gould (réalisés par Catherine David, Frédéric Lenoir et Jean-Philipe de Tonnac). Paris : Fayard 1998.

* Gleiser, Marcelo. The Prophet and the Astronomer. Apocalyptic Science and the End of the World. New York: W.W. Norton 2001.

* Hindu Myths. A Source Book Translated from the Sanskrit. (With an Introduction and Notes by Wendy Doniger). London: Penguin 1973.

* Ho Ting-jui. A Comparative Study of Myths and Legends from Formosan Aborigines. Bloomington: Indiana University 1967

* Hub, Ulrich & Jörg Mühle, Om 8 uur bij de Ark. (Trans. from German original by Tjalling Bos). Rotterdam: Lemniscaat 2008.

* Kaku, Michio. Parallel Worlds. The Science of Alternative Universes and Our Future in the Cosmos. London: Penguin Books 2006.

* Keulemans, Maarten. Exit mundi. Het einde van de wereld. De 50 beste scenario's. Utrecht: A.W. Bruna 2008.

* Leslie, John. The End of the World. The Science and Ethics of Human Extinction. New York: Routledge 1996.

* Lévi-Strauss, Claude. Mythologiques. Le cru et le cuit. Paris: Plon 1964.

* Lewis, Mark Edward. The Flood Myths of Early China. Albany: New York State University Press 2006.

* Moog-Grünewald, Maria and Verena Olejniczak Lobsien. Apokalypse. Der Anfang im Ende. Heidelberg: Universitätsverlag Winter 2003.

* Moretti, Franco, Conjectures on World Literature. In: New Left Review, jan-febr. 2000: 57-61.

* Myths from Mesopotamia. Creation, The Flood, Gilgamesh, and Others. (A New Translation by Stephanie Dalley) Oxford: Oxford University Press (1989) revised Edition 2000

* Johannes Riem, Die Sintflut in Sage und Wissenschaft. Hamburg: Agentur des Rauhen Hauses 1925

* Schefold, Reimar. Speelgoed voor de zielen. Kunst en cultuur van de Mentawai-eilanden. Delft & Zürich: Museum Nusantara: 1979-1980.

* Stenzel, A. Weltschöpfung, Sintflut und Gott. Braunschweig: Bauert & Rocco, 1894.

* Tsjechow, Anton P. Drie zusters ('Three Sisters'). In: Verzamelde Werken. Deel IV. Trans. From Russian by Charles B. Timmer. .Amsterdam: Uitgeverij G. van Oorschot

* Veliankode, Sidheeque M.A.. Doomsday: Portents and Prophecies. Toronto: Al-Attique Publishers 2001.

* Vitaliano, Dorothy B. Legends of the Earth. Their Geo-

logic Origins. Bloomington & London: 1973.

* Weber, Eugen. Apocalypses. Prophecies, Cults and Millennial Beliefs through the Ages. London: Hutchinson 1999.

* Welch, Adam C.. Visions of the End. A Study in Daniel and Revelation. London: James Clarke & Co 1958.

* Eric Zürcher, 'Prince Moonlight.' Messianism and Eschatology in Early Medieval Chinese Buddhism. In: T'oung Pao, (vol. 68) 1982:1-75.

مينيكه شيبر

ومن بعدنا الطوفان

حكايات نهاية البشرية

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

لو كان للبشرية بداية، فهل ستصير إلى نهاية كذلك؟ لقد أدى هذا السؤال المُعذِّب إلى عدد من النبوءات عبر مجرى التاريخ. لم تأتِ النهاية بعد، لكن خوفنا منها يبدو وكأنه لا خلاص منه. ولقد أوحى هذا الخوف للناس في كل أنحاء العالم بأن يبتدعوا قصصا أسطورية عن الهشاشة البالغة للحياة على وجه الأرض منذ البدء.

في هذا الكتاب تجمع البروفيسورة والكاتبة الهولندية الكبيرة مينيكه شيبر 30 حكاية ونصا من أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا الهندية وأوقيانوسيا؛ من الكتب المقدسة ومن حكايات الشعوب، وتُقدِّم لها بقراءة تحليلية سلسة وعميقة.

تردد الأساطير أصداء رسائل متطابقة من أجزاء مختلفة من العالم. وتجعلنا نفكر بشكل عالمي أكثر بدلا من التفكير بمفردات محلية مهتمة بذاتها. وعبر صفحات الكتاب نكتشف أن الأساطير القديمة قدم البشرية تقدم لنا أحيانا إجابات على الأسئلة التي تدور حول مستقبلنا.

●● Mineke Schipper

مينيكه شيبر كاتبة وأكاديمية وروائية هولندية. درست اللغة الفرنسية والفلسفة في جامعة أمستردام الحرة، ودرست النظرية الأدبية والأدب المقارن في جامعة أولتريخت. بدأت حياتها العملية بتدريس اللغة الفرنسية والأدب الأفريقي وكانت أطروحتها التي تقدمت بها للحصول على درجة الدكتوراه عام 1973 أول رسالة دكتوراه في هولندا عن الآداب الأفريقية. وهي مازالت تحتفظ بمنصبها كباحثة في مركز جامعة لايدن للآداب والفنون في المجتمع، لكنها متفرغة حاليا بشكل أساسي لحياتها ككاتبة. صدر لها من قبل كتاب "المكشوف والمحجوب.. من خيط بسيط إلى بدلة بثلاث قطع" عن دار صفصافة.

لوحة الغلاف: Pieter Bruegel the Elder
Cover design by: Alaa Elnewehy